4me Année, No. 137.

Lundi-17-2-1936

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــــدد ١٣٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٤ ذو القعدة سنة ١٣٥٤ — ١٧ فبراير سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

العـــزة

للأستاذ أحمد أمين

استعملت العرب كلمة « العزة » فى مقابل « الذلة » ، فقالوا رجل عزيز ورجل ذليل . وجاء استعمال « العزيز والذليل » فى القرآن متقابلتين ، فقال تعالى : « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » . وحكى عن المنافقين أنهم قالوا فى حرب الغزوات : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ، وهى كلمة قالها ابن أبىّ ، ويريد بالأعزة نفسه وصحبه ، وبالأذلة محمدا (ص) وصحبه ، فرد عليهم الله بقوله : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » . وقد تصدى بعض المسلمين لابن أبىّ وسل سيفه عليه ومنعه من دخول المدينة ، وقال : والله لا أغمده حتى تقول : « محمد الأعز وأنا الأذل » فقالها . والسبب فى كل هذا أن العرب فى الجاهلية كانوا يفهمون العزة فى المال والجاه والرياسة والولد ونحو ذلك ، فجعلها الاسلام فى الدين الحق ، وأداء الواجب للناس ولله

وأكثرَ العرب من استعمال هذه الكلمة فى الجاهلية والاسلام ، فكان أبو جهل يقول : « أنا أعز أهل هذا الوادى وأمنعهم » ، وقال الشاعر :

بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم في كل نائبةٍ عِزَازُ الآنُفِ

وفسر الراغب الأصفهاني « العزة » بأنها حالة مانعة للانسان من أن يُغْلَب ، وجعل اشتقاقها من قولهم أرض عَزَاز أي صلبة ، وتعزز لحم الناقة اشتد وصلب

والحق أن تحديد معنى العزة في منتهى الصعوبة ، وأصعب ما في ذلك رسم الحد الفاصل بين العزة والكبر ، وبين الذل والتواضع ؛ وقديما حاول الناس أن يفرقوا بينهما ، فقد روى أن رجلا قال للحسن بن عليّ : « إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً » فقال : « ليس بتيه ولكنه عزة » . وروى عن عمر ابن الخطاب أنه قال : « اخْشَوْشِنُوا وتَمَعْزَزُوا » كأنه خشى إذا أمر الناس بتعود الخشونة أن يلجئهم ذلك إلى احتقار النفس وذلها فاستدرك ذلك بطلب المحافظة على العزة

وحاول السهروردى أن يفرق بين العزة والكبر فقال : « العزة غير الكبر لأن العزة معرفة الانسان بحقيقة نفسه وإكرامها ، كما أن الكبر جهل الانسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها »

ولست أدرى لم أهمل علماء الأخلاق من المسلمين هذا الخلق فلم يكثروا الكلام فيه إكثارهم في غيره من الصدق والعدل والكرم والتواضع

ولو وضعت أنا « قائمة » الأخلاق مرتبة حسب أهميتها للمسلمين لوضعت في أعلاها « العزة » ، ولاخترت من الأخلاق ما يمس القوة والاعتداد بالنفس والرجولة والأنفة والحمية ، ولأقللت جداً من الكلام في التواضع والزهد والخوف ونحو ذلك ، لأن قائمة الأخلاق يجب أن تخضع في ترتيبها وتنويعها لعاملين : روح العصر ، وموقف الأمة إزاء بقية الشعوب ؛ بل أحياناً تنقلب الفضيلة إلى رذيلة ، ويكون الحث على هذا النوع من الفضائل داعية إلى الاجرام . فاذا أفرطت أمة في التواضع كانت الدعوة اليه إجراماً ، وإذا أفرطت أمة في الزهد كانت دعوة الأخلاقيين اليه دعوة إلى الموت والفناء

كنت زمناً قاضياً في « الواحات الخارجة » وهى بلاد في منتهى الفقر والبؤس ، أغناهم من ملك نُخَيْلات وسُوَيْعات في عين من عيون الماء ، بؤس شامل ، وجهل شائع ، وضعف يستذرف الدمع ، ويستوجب الرحمة . ذهبت يوماً إلى صلاة الجمعة في مسجدها البائس الفقير أيضاً .. فما كان أشد عجبي من خطيب يخطب من ديوان مطبوع يستحث الناس على ألا يقضوا صيفهم في أوربا ، وأنا على يقين أن الخطيب والسامعين لم يعرفوا أوروبا ، ولم يفهموا لها إلا معنى غامضاً ، ولم تحدث أحداً منهم نفسه بالسفر إلى مصر فضلاً عن أوروبا ، ولكنها قلة ذوق الخطيب وسماجته ، وجهله التام بالواقع

وأؤكد أن أكثر المتكلمين في الأخلاق من المسلمين مثل حال هذا الخطيب ، لا يعرفون زمانهم ، ولا يعرفون أمتهم ، ولا يعرفون موقف أمتهم من زمانهم . يرونهم أذلة فيدعون إلى الذلة ، ويرونهم متواضعين فيلحون في طلب التواضع ويرونهم زهاداً بالطبيعة لا يجدون الكفاف من العيش فيمعنون في طلب الزهد . فان هم تلطفوا قليلاً طلبوا منهم الرضا بالبؤس وألصقوه بالقدر ، وجعلوا ذلك كله ضرباً من التقوى والايمان وهم بذلك يداوون جوعاً بجوع ، وجرحاً بجرح ، وما بهم وكان يجب أن يداووا جوعاً بشبع ، وجرحاً بضماد ، وما بترياق

تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا ندعو إلى خلق يزيد الأمة ضعفا ، فلا ندعوها إلى الرضا بالقليل وفي إمكانها الكثير ولا ندعوها إلى الاستسلام للقدر وفي وسعها مكافحة الصعاب ومواجهة الشدائد ، ولا ندعوها إلى الذلة وفي استطاعتها أن تعز

والواقع أن أبيات العزة وأدب العزة وأمثال العزة وقصص العزة إنما تكثر في الأمة أيام عزتها وتختفي أيام بؤسها ، فلما كان العالم الاسلامى عزيزاً أنطقتهم بالعزة رماحهم ، ثم غلبوا على أمرهم فنطقوا بالتواضع ، وتواصوا بالاستكانة ، وألفت الكتب والخطب من ذلك الحين تروح على البائسين حتى لا يشعروا ببؤسهم ولا علوا شقاءهم ، وما زال الحال على هذا المنوال حتى صار الداء صحة والدواء مرضا

وليس غريبا أن يسير الناس على هذه الخطة ، ولكن غريب أن يسير القادة عليها ، وكان المفروض أن يكونوا أبعد نظرا ، وأطهر قلباً ، وأعرف بحقائق الأمور

* * *

أريد بالعزة أن يشعر كل انسان بكرامة نفسه ويشعر بما لها من حقوق ، فلا يسمح لمخلوق كائنا من كان أن ينال منها مثقال ذرة ، كما يشعر بما عليه من واجبات فلا يسمح

نفسه أن يعتدى على حقوق الناس مثقال ذرة أيضاً

وللعزة مظاهر متعددة ووسائل مختلفة ، فالناس كثيراً ما يطلبون الغنى وسيلة من وسائل العزة ، وآخرون يطلبون المنصب الحكومى والعضوية البرلمانية أو العضوية فى الجمعيات الراقيـة أو صداقة العظماء أو حسن الملبس على أنها وسائل للعزة ؛ والمتعلمون يطلبون العزة من طريق الشهادات من ليسانس ودكتوراه ودبلوم ونحو ذلك ، وهـذه كلها عزة شخصية ؛ وهناك عزة أخرى قومية وهى اعتزاز الفرد بنسبته إلى أمته كاعتزاز الانجليزى بانجليزيتـه والفرنسوى بفرنسيته والألمانى بألمانيته ، ولهذه كذلك مظاهر متعددة كاحترام كل أمة أعلامها والمحافظة على بعض تقاليدها والافتخار بلغاتها والفخر بآثارها ونحو ذلك ؛ وليس يهمنى الآن هـذا ولا ذاك ، إنما يهمنى نوع من الشعور يتملك المرء ويشعر منه بأنه إنسان فى الحياة لا يمتاز عنه أحد فى الوجود فى انسانيته . قد يمتاز الناس عنه فى المال أو فى الجاه أو فى المنصب ولـكن لا يمتاز عليه أحد فى أنه انسان ، فسائق السيارة وصاحب السيارة سيان فى احترامهما أنفسهما وشعورهما بحقوقهما وواجباتهما

ويسوءنى أن أرى الشرق لا يشعر بالعزة الشعور الواجب ، ولا ينزل هذه الفضيلة من نفسه المنزلة التى تستحقها ، وأكبر ما يؤلمنى فى ذلك مظهران :

الأول : استخذاء الشرقى أمام الأجنبى الأوربى وشعوره فى أعماق نفسه كأنه خلق من طينة غير طينته ، وكأن الطبيعة جعلت أحدهما سيداً والآخر عبداً ، ترى هذا الشعور فى المصالح الحكومية وفى الحوانيت التجارية وفى المجتمعات وفى الشوارع ، وفى كل معاملة وفى كل خطوة . بالأمس كنت فى محطة السكة الحديدية فذهبت الى شباك التذاكر وسألت الموظف — فى أدب — هل هنا محل صرف التذاكر الى بلدة كذا ؟ فلم يجب ، وأعدت السؤال فلم يجب ، فتولانى شعور ممتزج من غضب وخجل واستمال لبرودة السؤال وغير ذلك ، وما لبث أن جاء أجنبى فسأل مثل هذا السؤال بلغته الأجنبية ، فترك الموظف ما فى يده وأقبل عليه بكله ، وأجابه إجابة فيها كل معنى التبجيل والتعظيم ، واختتم كل جملة من جمله بكلمة « سيدى » ! فدهشت من هذا الحال وثارت نفسى ، وتجمع الدم فى وجهى ، ونلت من الموظف بقدر ما نال منى ، ولم أكسب من ذلك كله إلا أن أكتب هذا المقال

وموقف هـذا الموظف تقفه كل الأوساط على اختلاف فى مقدار اللباقة والـكياسة ولـكن الجوهر واحد ، فذلك هو الشأن فى الأوساط العلمية والتجارية والسياسية ، يتكلم الأجنبى كلمة عادية فتكون المثل ، وتكون الحكمة ، وتكون القول الفصل ؛ ويبدى الرأى فيكون الرأى الناضج والقول الحكيم والغاية التى ليس وراءها غاية ؛ ويطلب الطلب فلا بد أن يجاب ، وإذا لم يمكن فالاعتذار الحار والوعد باجابته فى ظرف آخر ؛ ويدخل المحل التجارى أو يركب القطار أو يدخل النادى فموضع رعاية خاصة ؛ ويعمل العمل فيقدر التقدير الغالى فى قيمته الأدبية ومكافأته المادية إلى ما يطول شرحه

وفى هذا من غير شك مذلة للشعور وكبت للنفس واستعباد للمواطن ، ومع هذا يطالبنا السادة الأخلاقيون بالتواضع ! لابد أن يفهم الناس فى كل مناسبة وفى كل ظرف أن القوم أناس مثلنا لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وأن هؤلاء القوم على أحسن تقدير ضيوفنا لا سادتنا ، ومن لحم ودم كلحمنا ودمنا ، ولهم عقل ولـكن كعقلنا ، وسلوك فى الأخلاق كسلوكنا ، وتصدر منهم الفضيلة والرذيلة كما تصدر عنا ، وأنهم ككل البشر يستذلون من أذل نفسه ، وأن واجبنا أن نحترمهم فى غير مذلة ، ونحترمهم لا على حساب احتقار المواطن ، وأننا نبادلهم احتراماً باحترام واحتقاراً باحتقار ، وأنه إذا حدثتهم أنفسهم بالاعتداء علينا لم نمكنهم ، وأن الحكم بيننا وبينهم دائماً أن لنا حقوقاً وعلينا واجبات كحقوقهم وواجباتهم ، فاذا طلبوا المساواة فالسمع والطاعة ، وإذا طلبوا الاذلال قلنا « لا » على أفواهنا

والأمر الثانى من مظاهر الذلة الذى لا يقل خطراً عن هذا ، فهم الرئيس لمعنى الرياسة ؛ فهو يفهمها على أنها غطرسة من جانبه ، وذلة من جانب مرءوسه ، وإلا لم يكن المرءوس مؤدباً . فرئيس المصلحة ليس لأحد رأى بجانب رأيه ، لا لوكيله ولا لمديرى إدارته ، عليهم أن يسمعوا فى ذلة والعزة له وحده ، ثم يتكرر تمثيل هذا الدور من أعلى فنازلا ، فكل من بعد الرئيس الأعلى رئيس من جانب ومرءوس من جانب ، فهو كمرءوس حاله ما بيّنا ، وهو كرئيس يقلد تقليداً تاماً رئيسه فى اعتزازه وإذلاله ، وهكذا دواليك ، حتى يصل الأمر الى ما نرى من الباعة فى الشارع والجندى ، فمثلهم كالقاطرة تصدم العربة التى تقابلها

السمكة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

حدَّث أحمدُ بن مسكين الفقيهُ البغدادي قال: حصلتُ في مدينة (بَلْخ) سنة ثلاثين ومائتين، وعالمُها يومئذ شيخُ خراسان أبو عبد الرحمن[1] الزاهد صاحبُ المواعظ والحِكَم، وهو رجل قلبُه من وراء لسانه، ونفسُه من وراء قلبه، والفلكُ الأعلى من وراء نفسه، كأنه يُلْقَى عليه فيما زعموا؛ وكان يقال له عندهم (لُقمانُ هذه الأمّة) لِمَا يعجبهم من حِكَمِه في الزهد والموعظة. وقد حضرتُ مجالسه وحفظتُ من كلامه شيئاً كثيراً كقوله: من دخل في مذهبنا هذا، (يعني الطريق) فليجعل على نفسه أربعَ خصال من الموت: موتٌ أبيض، وموتٌ أسود، وموتٌ أحمر، وموتٌ أخضر؛ فالموت الأبيض الجوع، والموت الأسود احتمال الأذى، والموت الأحمر مخالفةُ النفس، والموت الأخضر طرحُ الرِّقاع بعضها على بعض (يعني لبس المرقعة والخَلَق من الثياب)

وقلت يوماً لصاحبه وتلميذه (أبي تراب) وجاريتُه في تأويل هذا الكلام: قد فهمنا وجهَ التسمية في الموت الأخ ما دامت المرقعةُ خضراء، فما الوجهُ في الأبيض والأس والأحمر؟ فجاء بقول لم أرضه، وليس معه دليل، ثم قال: فما عندك أنت؟ قلت: أما الجوع فيُميت النفس عن شهوا ويتركها بيضاء نقية، فذلك الموت الأبيض؛ وأما احتمال الأذ فهو احتمال سواد الوجه عند الناس فهو الموتُ الأسود. وأما مخالفة النفس فهي كاضطرام النار فيها، فذلك الموت الأ

قال أحمد بن مسكين: وكنت ذات نهارٍ في مسج (بلخ) والناس متوافرون ينتظرون (لقمانَ الأمة) ليسمعو وشغله بعضُ الأمر فراث عليهم، فقالوا: من يعظنا إلى أن يجي الشيخ؟ فالتفت إليّ أبو تراب وقال: أنت رأيت الامام أح ابن حنبل، ورأيتَ بِشراً الحافي وفلاناً وفلاناً، فقم فحدِّ الناسَ عنهم، فانما هؤلاء وأمثالهم هم بقايا النبوّة، ثم أخذ بيد إلى الاسطوانة التي يجلس اليها إمامُ خراسان فأجلسني ثم قعد بين يديّ

وتطاولت الأعناق، ورماني الناس بأبصارهم، وقالوا البغدادي! البغدادي! وكأنما ضوعفتُ عندهم بمجلسي مر وبنسبتي مرةً أخرى، فقلت في نفسي: والله ما في الموت الأح ولا الأخضر ولا الأسود موعظة، ولو لبس عزرائيل قوس قُز

(١) هو حاتم بن يوسف شيخ خراسان وواعظها توفي سنة ٢٣٧ للهجرة

ثم كل عربة تصدم ما بعدها الى آخر القطار

* * *

ليس لهذا من علاج إلا فهم العزة بمعناها الدقيق، وهو احترام نفسك في غير احتقار أحد، وأن تقف موقفا له جانبان، فان نظرت الى من هو أعلى منك في المنصب والجاه والجنسية فلا تمكنه أن ينال من نفسك ولو ذرة، ولا أن يتعدى حدوده ولو شعرة؛ وإذا نظرت الى من هو أسفل منك فلا تتعد حدودك، وإذا شعرت باستخذائه وذلته فارفع مستواه ما استطعت حتى يصل الى الحدود

على أنه ليس هناك أسفل ولا أعلى إلا في مواضعات سخيفة، فمن الذي قال إن كناس الشارع وضيع وفراش المصلحة وضيع، والخادم في المنزل وضيع؟ نعم إن الحالة الاجتماعية فرقت بين الناس في المرتب ونحوه، ولكن القيمة الحقيقية للانسان وهي ما له من حقوق وواجبات قدر مشترك بين الجميع

فليس من حقك أن تنادي بائع الجرائد «ولد» ولا خادمك بأحقر الأسماء، ولا فراش المصلحة بما يشعر باحتقاره، وهو مطالب بالأدب معك، وأنت مطالب بالأدب معه، وليس للجندي حق أن يرفع عصاه على بائع لم يتجاوز حدوده، ولا لأي رئيس أن يخرج عن الأوضاع الأدبية في مخاطبته مرءوسه

فاذا فرغ الرئيس والمرءوس من العمل، وفرغ سائق السيارة ومالكها، وفرغ الضابط والجندي والمعلم والتلميذ فكلهم سواء في الحياة الاجتماعية، وكلهم سواء في الحقوق، لا ذلة لأحد على أحد، ولا اعتزاز من أحد على أحد

« مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟! »

أحمد أمين

لأفسد شعرُ هذه الألوان معناه ، وإنما يجب أن يكون كما يجب أن يكون . ولا موعظة فى كلام لم يَغلِ من نفس قائله ليكون عملاً فيتحول فى النفوس الأخرى عملاً ، ولا يبقى كلاماً ؛ وإنه ليس الوعظُ تأليفُ القول للسامع يسمعُه ، لكنه تأليفُ النفس لنفسٍ أخرى تراها فى كلامها ، فيكون هذا الكلام كأنه قرابةٌ بين النفسين ، حتى لكأن الدمَ المتجاذبَ يجرى فيه ويدور فى ألفاظه

* * *

وكنت رأيتُ رؤيا (بيلغ) تتصل بقصة قديمة فى بغداد ، فقصصتها عليهم ، فكانت القصة كما حكيتُها أنى امتُحِنتُ بالفقر فى سنة تسع عشرة ومائتين ؛ وانحسمت مادتى وقُحِط منزلى قحطاً شـديداً جمع علىّ الحاجة والضرّ والمسكنة ؛ فلو انكشفت الصحراءُ الجدبةُ فصغرت ثم صغرت حتى ترجعَ أذرُعاً فى أذرع لكانت هى دارى يومئذ فى محلة باب البَصرة من بغداد . وجاء يومٌ صحراوىٌ كأنما طلعت شمسُه من بين الرمل لا من بين السُّحُب ، ومرّت الشمس على دارى فى بغداد مرورها على الورقة الجافة الملقة فى الشجرة الخضراء ؛ فلم يكن عندنا شىء يُسيغه حلقُ آدمىّ إذ لم يكن فى الدار إلا ترابُها وحجارتها وأجذاعها ؛ ولى امرأة ولى منها طفل صغير وقد طوينا على جوع يخسِفُ بالجوف خسفاً كما تهبط الأرض ؛ فلتمنيتُ حينئذ لو كنا جرذاناً فنقرضَ الخشب ؛ وكان جوعُ الصبى يزيد المرأة ألماً إلى جوعها ، وكنت بهما كالجائع بثلاثة بطون خاوية ، فقلت فى نفسى : إذا لم نأكل الخشب والحجارة فلنأكل بثمنها ؛ وجمعتُ نيتى على بيع الدار والتحول عنها وإن كان خروجى منها كالخروج من جلدى لا يسمى إلا سلخاً وموتاً ؛ وبت ليلتى وأنا كالمُثخن حُمل من معركةٍ فما يتقلب إلا على جراحٍ تعمل فيه عملَ السيوف والأسنّة التى عملت فيها

ثم خرجتُ بغَلَسٍ لصلاة الصبح ؛ والمسجد يكون فى الأرض ولكن السماء تكون فيه ، فرأيتنى عند نفسى كأنى خرجت من الأرض ساعة . ولما قُضيت الصلاةُ رفع الناسُ أكفّهم يدعون الله تعالى وجرى لسانى بهذا الدعاء : اللهمّ بك أعوذ أن يكون فقرى فى دينى ، أسألك النفعَ الذى يُصلحنى بطاعتك ، وأسألك بركةَ الرضى بقضائك ، وأسألك القوةَ على الطاعة والرضى يا أرحم الراحمين

ثم جلستُ أتأمل شأنى وأطلتُ الجلوسَ فى المسجد كأنى لم أعد من أهل الزمن فلا تجرى علىّ أحكامه ، حتى إذا ارتفع الضُّحى وابيضّت الشمس جاءت حقيقة الحياة فخرجتُ أتسبب لبيع الدار وانبعثتُ وما أدرى أين أذهب ، فما سرت غير بعيد حتى لقيني أبو نصر الصياد وكنت أعرفه قديماً ، فقلت : يا أبا نصر ! أنا على بيع الدار فقد ساءت الحال وأحوَجَت الخصاصة ، فأقرضني شيئاً يُمسكنى على يومى هذا بالقوام من العيش حتى أبيع الدار وأوَفّيك

فقال : يا سيدى ! خذ هذا المنديل إلى عيالك وأنا على أثرك لاحق بك إلى المنزل . ثم ناولنى منديلا فيه رقاقتان بينهما حلوى وقال : إنهما والله بركةُ الشيخ

قلت : من الشيخ وما القصة ؟

قال : وقفتُ أمس على باب هذا المسجد وقد انصرف الناس من صلاة الجمعة فمر بى أبو نصر بشر الحافى(١) فقال : مالى أراك فى هذا الوقت ؟ قلت : ما فى البيت دقيق ولا خبز ولا درهم ولا شىء يباع . فقال : اللهُ المستعان ؛ احمل شبكتك وتعال إلى الخندق ؛ فحملتها وذهبتُ معه ، فلما انتهينا إلى الخندق قال لى : توضّأ وصلّ ركعتين ، ففعلت ، فقال : سمّ الله تعالى وألق الشبكة ؛ فسميت وألقيتها ، فوقع فيها شىء ثقيل فجعلت أجره فشق علىّ ؛ فقلت له ساعدنى فإنى أخاف أن تنقطع الشبكة ، فجاء وجرها معى فخرجت سمكة عظيمة لم أر مثلها سِمَناً وعظَماً وفراهة . فقال : خذها وبعها واشتر بثمنها ما يصلح عيالك . فحملتها فاستقبلنى رجل اشتراها ، فابتعت لأهلى ما يحتاجون إليه ، فلما أكلتُ وأكلوا ذكرتُ الشيخ فقلت أهدى له شيئاً ، فأخذتُ هاتين الرقاقتين وجعلت بينهما هذه الحلوى وأتيت إليه فطرقت الباب فقال : من ؟ قلت : أبو نصر ! قال : افتح وضع ما معك فى الدهليز وادخل ، فدخلت وحدثته عما صنعت فقال : الحمد لله على ذلك . فقلت : إنى هيأت للبيت

(١) هو الزاهد العظيم بشر بن الحارث المعروف بالحافى ، توفى سنة ٢٢٧ للهجرة وكان واحد الدنيا فى ورعه وتقواه ؛ وقيل له الحافى لأنه كان فى حداثته يمشى الى طلب العلم حافياً إجلالا لحديث النبى صلى الله عليه وسلم

شيئاً وقد أكلوا وأكلتُ ومعي رقاقتان فيهما حلوى

قال : يا أبا نصر ! لو أطعمنا أنفسنا هذا ماخرجت السمكة ! اذهب كلْه أنت وعيالك

* * *

قال أحمد بن مسكين : وكنت من الجوع بحيث لو أصبتُ رغيفاً لحسبته مائدة أنزلت من السماء ، ولكن كلة الشيخ عن السمكة أشبعتني بمعانيها شِبَعاً ليس من هذه الدنيا كأنما طعمت منها ثمرة من ثمار الجنة . وطفِقتُ أرددها لنفسي وأتأمل ما تفتُق الشهواتُ على الناس ، فأيقنتُ أن البلاء إنما يصيبنا من أننا نفسر الدنيا على طولها وعرضها بكلمات معدودة ، فاذا استقر في أنفسنا لفظ من ألفاظ هذه الشهوات ، استقرت به في النفس كل معانيه من المعاصي والذنوب ، وأخذت شياطين هذه المعاني تحوم على قلوبنا فنُصبح مُهَيَّئين لهذه الشياطين عاملين لها ثم عاملين معها ، فتدخلنا مداخلَ السوء في هذه الحياة وتُقْحِمنا في الورطة بعد الورطة وفي الهلكة بعد الهلكة . وما هذه الشياطين إلا كالذباب والبعوض والهوام ، لا تحوم إلا على رائحة تجذبها فان لم تجد في النفس ما تجتمع عليه تفرقت ولم تجتمع ، وإذا ألمّت الواحدة منها بعد الواحدة لم تثبت . فلو أننا طردنا من أنفسنا الكلمات التي أفسدت علينا رؤيةَ الدنيا كما خلقت ، لكان للدنيا في أنفسنا شكل آخر أحسن وأجمل من شكلها ، ولكانت لنا أعمال أخرى أحسن وأطهر من أعمالنا

فالشيخ لم يكن في نفسه معنى لكلمة (التلذذ) ، وبطرده من نفسه هذا اللفظ الواحد ، طرد معاني الشر كلَّها وصلُح له دينُه وخلُصت نفسه للخير ومعاني الخير . ولو أن رجلاً وضع في نفسه امرأةً يعشقها لصارت الدنيا كلها في نفسه كالمخدع ما فيه إلا المرأةُ وحدها بأسبابها اليه وأسبابه اليها

وقد كنتُ سمعتُ في درس شيخنا أحمد بن حنبل هذا الحديث : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات ؛ فما فهمت والله معناه إلا من كلة الشيخ في السمكة وقد علّمنيها هذا الصياد العامي . فالشياطين تنجذب إلى المعاني ، والمعاني يوجدها اللفظ المستقر في القلب استقرارَ غرض أو شهوة أو طمع ؛ فاذا خلا القلب من هذه المعاني فقد أمن منازعتها له وشغلها إياه فيصبح فوقها لا بينها ؛ ومتى القلب فوق الشهوات ولم يجد من ألفاظها ما يُعميه ويمد نظرَه إلى الحقائق ، انكشفت له هذه الحقائق فانكشف الملكوت . فاذا وقع بعدُ في واحدة من اللذات ولو (كالرق والحلوى) استعلت الأشياء عليه لحجبته ، وعاد بينها أو تحـ وعمِيَ عمى اللذة ؛ والحجابُ على البصر كأنه تعليقُ ا على البصر

وكنت لا أزال أعجب من صبر شيخنا أحمد بن حنبل ضرب بين يدي المعتصم بالسياط حتى غُشي عليه (1) فلم يتـ عن رأيه ، فعلمت الآن من كلة السمكة أنه لم يجعل في نـ للضرب معنى الضرب ، ولا عرف للصبر معنى الصبر الآد ولو هو صبر على هذا صبر الانسان لجزع وتحول ، ولو ضـ ضرب الانسان لتألم وتغير ؛ ولكنه وضع في نفسه معنى ثـ السنة وبقاء الدين وأنه هو الأمةُ كلُّها لا أحمد بن حنبـ فلو تحوّل لتحول الناس ولو ابتدع لابتدعوا ؛ فكان صـ صبر أمة كاملة لا صبر رجل فرد ، وكان يُضرَب بالسياط ونفـ فوق معنى الضرب ، فلو قرضوه بالمقاريض ونشروه بالمناشير مانالوا منه شيئاً إذ لم يكن جسمه إلا ثوباً عليه ، وكان الرجل الفكر ليس غير

هؤلاء قوم لا يرون فضائلهم فضائل ولكنهم يرونها أمانـ قد ائتُمِنوا عليها من الله لتبقى بهم معانيها في هذه الدنيا ؛ فـ يُزرعون في الأمم زرعاً بيد الله ولا يملك الزرع غير طبيعته وما كان المعتصم وهو يريد شيخنا على غير رأيه وعقيدته إلا كالأحـ يقول لشجرة التفاح : أثمري غير التفاح

* * *

قال أحمد بن مسكين : أخذتُ الرقاقتين وأنا أقول في نفسي لعن الله هذه الدنيا ! إن من هوانها على الله أن الانسان فـ يلبس وجهَه كما يلبسُ نعله . فلو أن انساناً كانت له نظر ملائكية ثم اعترض الخلقَ ينظر في وجوههم لرأى عليها وحو وأقذاراً كالتي في نعالهم أو أقذر أو أقبح ، ولعله كان لا يرى أجمـ

(1) كان هذا في سنة ٢١٩ وقد أرادوا الامام العظيم على القو بخلق القرآن فلم يقل به فأفتى القاضي ابن أبي دؤاد بقتله وشغب عليه ثم ضرب بين يدي المعتصم ، فلما صمم ولم يجب أطلقه المعتصم وندم على ضر

لوجوه التي تستهيم الناسَ وتتصبّاها من الرجال والنساء إلا كالأحذية العتيقة . . .

ولكني أحسست أن في هاتين الرقاقتين سرّ الشيخ ورأيتهما في يدي كالوثيقتين بخير كثير ، فقلت على بركة الله ومضيتُ إلى داري ؛ فلما كنت في الطريق لقيتني امرأةٌ معها صبي فنظرت إلى المنديل وقالت : ياسيدي هذا طفل يتيم جائع ولا صبر له على الجوع فأطعمه شيئاً يرحمك الله ؛ ونظر إليّ الطفل نظرةً لا أنساها حسبتُ فيها خشوعَ ألف عابد يعبدون الله تعالى منقطعين عن الدنيا ، بل ما أظن ألفَ عابد يستطيعون أن يُروا الناس نظرةً واحدة كالتي تكون في عين صبي يتيم جائع يسأل الرحمة . إن شدة الهمّ لتجعل وجوه الأطفال كوجوه القديسين في عين من يراها من الآباء والأمهات ، لعجز هؤلاء الصغار عن الشر الآدميّ وانقطاعهم إلا من الله والقلب الانسانيّ ، فيظهر وجهُ أحدهم وكأنه يصرخ بمعانيه يقول : يا رباه يا رباه !

* * *

قال أحمد بن مسكين : وخيل إلى حينئذ أن الجنة نزلت إلى الأرض تعرض نفسها على من يُشبعُ هذا الطفلَ وأمه ، والناس عميٌ لا يبصرونها ، وكأنهم يمرون بها في هـذا الوطن مرورَ الحمير بقصر الملك ، لو سئلت فضلت عليـه الاصطبل الذي هي فيه . . .

وذكرتُ امرأتي وابنها وهما جائعان منذ أمس ، غير أني لم أجد لهما في قلبي معنى الزوجة والولد ؛ بل معنى هذه المرأة المحتاجة وطفلها ، فأسقطتهما عن قلبي ودفعت ما في يدي للمرأة وقلت لها : خذي وأطعمي ابنـــك ، ووالله ما أملك بيضاء ولا صفراء وإن في داري لمن هو أحوج إلى هذا الطعام ؛ ولولا هذه الحالَّةُ بي لتقدمت فيما يصلحك . فدَمَعت عيناها وأشرق وجه الصبي ؛ ولكن طمّ على قلبي ما أنا فيه فلم أجد للدمعة معنى الدمعة ولا للبسمة معنى البسمة

وقلت في نفسي : أما أنا فأطوي إن لم أصب طعاما ، فقد كان أبو بكر الصديق يطوي ستة أيام ، وكان ابن عمر يطوي ، وكان فلان وفلان ممن حفظنا أسماءهم ورويْنا أخبارهم ؛ ولكن مَن للمرأة وابنها بمثل عقدي ونيتي ؟ وكيف لي بهما ؟

ومشيتُ وأنا مُنكَسِر منقبض وكأني كنت نسيت كلمة الشيخ « لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة » فذكرتها وصرفتُ خاطري إليها وشغلتُ نفسي يتدبرها وقلتُ : لو أني أشبعتُ ثلاثة بجوع اثنين لحُرمت خمس فضائل (١) وهـذه الدنيا محتاجة إلى الفضيلة ، وهذه الفضيلة محتاجة إلى مثل هـذا العمل ، وهذا العمل محتاج إلى أن يكون هكذا ، فما يستقيم الأمر إلا كما صنعت

وكانت الشمس قد انبسطت في السماء وذلك وقتُ الضحى الأعلى ، فملت ناحيةً وجلستُ إلى حائط أفكر في بيع الدار ومن يبتاعها ؛ فأنا كذلك إذ مرّ أبو نصر الصياد وكأنه مُسْتَطار فرحاً فقال : يا أبا محمد ما يجلسك ههنا وفي دارك الخير والغنى ؟ قلت : سبحان الله ! من أين خرجت السمكة يا أبا نصر ؟

قال : إني لفي الطريق إلى منزلك ومعي ضرورةٌ من القُوت أخذتها لعيالك ودراهمُ استَدنتُها لك ، إذا رجلٌ يستدلُّ الناس على أبيك أو أحدٍ من أهله ، ومعه أثقال وأحمال ؛ فقلت له أنا أدلك ومشيت معه أسأله عن خبره وشأنه عند أبيك . فقال : إنه تاجر من البصرة وقد كان أبوك أودعه مالاً من ثلاثين سنة فأفلس وانكسر المال ، ثم ترك البصرة إلى خراسان فصلُح أمره على التجارة هناك وأيْسرَ بعد المحْنَة ، واستظهر بعد الخذلان ، وأقبل جَدُّه بالثراء والغنى فعاد إلى البصرة ، وأراد أن يتحلل فجاءك بالمال وعليه ما كان يربحه في هذه الثلاثين سنة وإلى ذلك طرائف وهدايا

* * *

قال أحمد بن مسكين : وأنقلبُ إلى داري فاذا مالٌ جَمٌّ وحال جميلة ! فقلت : صدق الشيخ : « لو أطعمنا أنفسنا هذا ماخرجت السمكة » ! فلو أن هذا الرجل لم يلق في وجهه أبا نصر في هـذه الطريق في هذا اليوم في هذه الساعة لما اهتدى إلى ، فقد كان أبي مغمورا لا يعرفه أحد وهو حي ؛ فكيف به ميتاً من وراء عشرين سنة ؟

وآليت ليَعلمَنّ اللهُ شكري هذه النعمة ؛ فلم تكن لي همةٌ

(١) يريد جوعه وجوع امرأته وجوع ابنه ، ثم شبع هـذه المرأة وشبع ابنها . فهذه خمس فضائل

إلا البحث عن المرأة المحتاجة وابنها فكفيتُهما وأجريت عليهما رزقاً ، ثم اتَّجرت فى المال وجعلت أربْحه بالمعروف والصنيعة والاحسان وهومقبل يزداد ولا ينقص حتى تموّلت وتأثّلت

وكأنى قد أعجبتنى نفسى وسرّنى أنى قد ملأت سجلات الملائكة بحسناتى ، ورجوت أن أكون قد كُتبت عند الله فى الصالحين ، فنمتُ ليلة فرأيتنى فى يوم القيامة والخَلْق يموج بعضهم فى بعض ، والهولُ هولُ الكون الأعظم على الانسان الضعيف يُسأل عن كل ما مسّه من هذا الكون . وسمعتُ لصائح يقول : يا معشر بنى آدم ! سَجَدَت البهائم شكرا لله أنه لم يجعلها من آدم . ورأيتُ الناس وقد وُسِّعت أبدانهم فهم يحملون أوزارهم على ظهورهم مخلوقةً مجسَّمة ، حتى لكأن الفاسق على ظهره مدينة كلها خُزيات !

وقيل : وُضعت الموازين وجئ بى لوزن أعمالى . فجُعلت سيئاتى فى كفة وألقيت سجلات حسناتى فى الأخرى ، فطاشت السجلات ورجحت السيئات ، كأنما وزنوا الجبلَ الصخرىّ العظيم الضخم بلُفافة من القطن . .

ثم جعلوا يلقون الحسنة بعد الحسنة مما كنت أصنعه فاذا تحت كل حسنة شهوةٌ خفيةٌ من شهوات النفس كالرياء والغرور وحب المَحْمَدَة عند الناس وغيرها فلم يسلم لى شىء ، وهلكتْ عنى حجتى ، إذ الحجة ما يُبينه الميزان ، والميزان لم يدلّ إلا على أنى فارغ

وسمعت الصوت : ألم يبق له شىء ؟ فقيل : بقى هذا

وأنظر لأرى ما هذا الذى بقى ، فاذا الرقاقتان اللتان احسنتُ بهما على المرأة وابنها ! فأيقنتُ أنى هالك ؛ فلقد كنت أحسن بمائة دينار ضربةً واحدة فما أغنت عنى ورأيتها فى الميزان مع غيرها شيئاً معلّقاً كالغمام حين يكون ساقطا بين السماء والأرض لا هو فى هذه ولا هو فى تلك

ووُضعت الرقاقتان وسمعتُ القائل : لقد طار نصفُ ثوابهما فى ميزان أبى نصر الصياد . فانخذلتُ انخذالاً شديداً حتى لو كُسرت نصفين لكان أخفّ علىّ وأهون . بيد أنى نظرت فرأيت كفة الحسنات قد نزلت منزلةً ورجحت بعض الرجحان

وسمعت الصوت : ألم يبق له شىء ؟ فقيل : بقى هذا

وأنظر ما هذا الذى بقى ، فاذا جوع امرأتى وولدى فى اليوم ! وإذا هو شىء يوضع فى الميزان ، وإذا هو ينزل ويرتفع بالأخرى حتى اعتدلتا بالسوّية . وثبت الميزانُ على فكنت بين الهلاك والنجاة

وأسمع الصوت : ألم يبق له شىء ؟ فقيل بقى هذا

ونظرت فاذا دموع تلك المرأة المسكينة حين بكت من المعروف فى نفسها ومن إيثارى إياها وابنها على أهلى . ووُضـ غرغرة عينيها فى الميزان ففارت فطمّت كأنها لجّة تحت اللجة بحر . وإذا سمكةٌ هائلة قد خرجت من اللجة وقـ نفسى أنها روح تلك الدموع ، فجعلت تعظم ولا تزال تعظـ والكفة ترجح ولا تزال ترجح ، حتى سمعتُ الصوت يقو قد نجا !

وصحت صيحةً انتبهتُ لها فاذا أنا أقول : لوأطعمنا أنفـ هذا ما خرجت السمكة !

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

أساليب الكفاح الدولي

بين الأمس واليوم

بقلم باحث دبلوماسي كبير

تثير المشاكل العسكرية والسياسية العالمية الحاضرة كثيراً ن التأملات ؛ وأول ما يلاحظ فيها أن أساليب الحرب الكفاح المادية بين الدول قد طرأ عليها تغيير جوهري حاسم ، ذا بينما نرى أساليب الكفاح السياسي تقوم في جوهرها على ن الأسس التي قامت عليها منذ قرون ، ويكفي أن نرجع إلى شرين عاما فقط ، أعني إلى الحرب الكبرى ، لنرى إلى أي مدى ائل تطورت أساليب الحرب ؛ ففي أثناء الحرب الكبرى كانت الحرب الجوية لا تزال في بدايتها ، وكانت المخترعات الأسلحة الجديدة المهلكة مثل الغازات السامة والدبابات لا تزال دور التجربة ، ولم يعلم يومئذ مبلغ فعلها أو أثرها في تطور ساليب الحرب . أما اليوم فقد غدت الأساطيل الجوية أروع أفعل وسائل الحرب السريعة المهلكة ، وغدت الغازات السامة لاحاً يعتمد عليه ويحسب حسابه ويتحوط لدرئه والوقاية منه جميع الأمم المتمدنة ؛ وغدت الدبابات الضخمة وحدة فنية ابتة في معظم الجيوش الكبرى ؛ وهذه أمثال فقط مما ذاع عرف من أسلحة الحرب المعاصرة ، ولكن لا ريب أن هناك سلحة ووسائل مهلكة أخرى لم تعرف ولم تذع بعد ، وإن كنا سمع عنها بعض الروايات الغريبة المدهشة ، ومن المحقق أنها وم تنشب حرب عالمية جديدة ، أو حرب طاحنة بين دولتين ظيمتين ، ستقع على العالم وقع الصواعق ، وتحدث ثورة جديدة ائلة في أساليب الحرب والقتال

ونرى من الجهة الأخرى منظراً غريباً من مناظر الكفاح الدولي الحديث هو العقوبات الدولية ، فهنالك اليوم زهاء خمسين دولة من دول العالم ، وبينها عدة من الدول العظمى ، تبحث في جنيف في فرض عقوبة جديدة على إيطاليا تكون حاسمة في وقف اعتدائها على الحبشة ، وذلك بعد أن فرضت عليها العقوبات الاقتصادية الاجتماعية وأحدثت في شؤونها الداخلية والاقتصادية أزمات ومتاعب شديدة ؛ وهذه العقوبة الجديدة تنحصر في حظر تصدير البترول والحديد والفحم إلى ايطاليا ، والمقدر أن تنفيذ هذه العقوبة يكون ضربة قاضية على المغامرة الايطالية في الحبشة ، وأنه يؤدي سريعاً إلى شل الحركات العسكرية الايطالية ، لأن ايطاليا تعتمد على الخارج في استيراد هذه المواد الحيوية اللازمة لتموين أسطولها وطياراتها ودباباتها ، وكل حركاتها ومشاريعها العسكرية ؛ وحرمانها من هذه المواد يقضي على كل هذه المشاريع والحركات ، ويجعل من أساطيلها وطياراتها ودباباتها قطعاً من الحديد والصلب لا حياة فيها ؛ ثم نرى الدول تذهب في تفكيرها إلى أبعد من ذلك ، فتقدر أن ايطاليا قد استوردت من هذه المواد ما يكفيها زمناً ، أو أنها ستظفر على أي حال باستيراد البترول من إحدى الدول التي لا توافق على حظره ، فتفكر في وسيلة أخرى هي حظر نقل البترول إلى ايطاليا على سفن الدول المشتركة في توقيع العقوبات ، وهذه الدول محدودة معروفة ، وايطاليا لا تملك من سفن نقل البترول ما يكفي لاستيراد ما تبغيه

فهذه وسائل جديدة مبتكرة في ميدان الكفاح الدولي ؛ ولكنها لا تخلو من روح القديم أيضاً ، بل لا تخلو من وسائله ، فهي في الواقع نوع من الحصار السلمي العام ، وهي تؤدي إلى نفس النتائج التي يؤدي اليها الحصار العسكري أو البحري ، وكل ما هنالك أنه قد أسبغ عليها تأييد دولي عام يجعلها بعيدة عن صفة النضال الشخصي أو المباشر ؛ ويقدم الينا التاريخ الحديث مثلا من هذا الحصار العام الذي يراد به إذلال دولة أو سحقها بالوسائل الاقتصادية ، وهو القرار الشهير الذي أصدره نابوليون في سنة ١٨٠٦ والذي يعرف بقرار برلين نسبة إلى البلد الذي صدر فيه ؛ فهذا القرار يقضي بوضع الجزائر البريطانية في حالة حصار تام ، وبان تقطع فرنسا وجميع الأمم التابعة لها جميع علائقها الاقتصادية والمالية مع انكلترا ، وأن تقفل جميع الثغور الفرنسية وثغور الأمم التابعة لها في وجه السفن البريطانية ؛ وكان نابوليون يرمي بتنظيم هذا الحصار الاقتصادي المطبق إلى سحق تجارة انكلترا التي هي سر عظمتها وغناها بعد أن عجز عن مكافحتها بالوسائل العسكرية ؛ ولكن انكلترا أجابت

على هـذا الحصار بتنظيم القاطعة التجارية والبحرية ضد فرنسا واتخاذ الاجراءات الانتقامية المماثلة ؛ وقد عانت انكلترا مدى حين آثار هذا الحصار المرهق ، ولـكن فرنسا عانت أيضا من آثاره ؛ ولم يوفق نابوليون إلى تحقيق غايته ، إذ كانت سياسته قائمة على الغايات والاعتبارات الشخصية ، ولم تفز بنوع من التأييد الدولى العام ؛ ومن الواضح أن العقوبات الاقتصادية التى توقعها الآن عصبة الأمم على ايطاليا تقوم على فكرة مماثلة فى القصد إلى اضعاف الدول المعتدية (ايطاليا) وإخضاعها بالوسائل الاقتصادية ، وهى وسائل فعالة فى عصرنا ، ولـكن الفرق بين قرار برلين ، وقرار عصبة الأمم أن قرار العصبة يفوز بما يشبه الاجماع الدولى ، وبذلك يتخذ طابعاً دولياً عاما بدلا من أن يتخذ طابع الـكفاح الشخصى بين دولتين ، ويغدو أثره أشد وقعاً وفعلا

أما وسائل الـكفاح السياسى الذى يضطرم اليوم فى أوربا ، والذى يراد أن يمهد به للصراع الحربى المقبل ، فما زالت تقوم على نفس الأسس التى عرفتها أوربا منذ قرون . وقد مرت عقب انتهاء الحرب الـكبرى فترة لاح للعالم فيها أن وسائل الـكفاح الدولى القديمة قد عفت ، وأن العالم سوف يستقبل عهد جديدا من الوئام والتفاهم الدولى ، وأن المنازعات الدولية يمكن أن تسوى بالوسائل السلمية مثل التحكيم أو الالتجاء لمحكمة دولية عليا ؛ وكان للعالم عذره فى هذا الاعتقاد وهو يرى عصبة الأمم ومثلها العليا ، ومواثيق السلام وعدم الاعتداء يتوالى عقدها منذ ميثاق لوكارنو ، ثم يرى ميثاقا يعقد بتحريم الحرب ونبذها كأداة للسياسة القومية وتنضم اليه أسرة الدول الـكبرى كلها ؛ ولكن سرعان ما تبدد هـذا الحلم ، وارتفع الطلاء الخلب الذى كان يغشى هذه المظاهر والدعاوى ، وبدت السياسة الدولية فى ثوبها الحقيقى القديم ، قائمة على نفس الأسس القديمة التى تدفع أوربا ما بين آونة وأخرى إلى معترك الحروب القومية الـكبرى

أما هذه الأسس التى يقوم عليها معترك السياسة الدولية اليوم . فهى اعتبارات السياسة والخصومات والمطامع القومية القديمة ، والتوازن الأوروبى القديم ، الذى يقسم القارة الى كتل سياسية وعسكرية متشادة متكافئة ، لا تكاد تهم احداها بالتفوق حتى تناهضها أخرى أقوى وأكثر تحفزا ؛ وقد السياسة القومية القديمة تلعب دورها من وراء الستار دائ إبان ازدهار الدعوة الى السلام والتفاهم الدولى ؛ أما اليو اضمحلت هـذه الدعوة وانهارت المواثيق السلمية التى باسمها وفى ظلها ، فان السياسة القومية تسيطر فى ميدان ا الدولى بصورة ظاهرة غـير منكورة ؛ وأوربا القديمة تتخ اليوم عدة جباه سياسية وعسكرية خصيمة ؛ وإذا كانت الجباه قد تغيرت أوضاعها عما كانت عليه قبل الحرب الـ لتغير فى الأوضاع السياسية والجغرافية التى ترتبت على الحر فانها ما زالت تحتفظ فى جوهرها بهيكلها القـديم ؛ فالخ الفرنسية الألمانية مازالت محور التجاذب السياسى والعسكر أوربا ، وحول هذه الخصومة تجتمع القوى المختلفة ؛ فر الشـيوعية لأنها تخشى ألمانيا الهتـلرية تجنح اليوم الى ا الفرنسية ، بعد أن كانت تجنح من قبل الى الجبهة الألما وفرنسا تحاول أن تستبق الى جانبها جميع حلفائها بالأمس أعنى بريطانيا العظمى وبلجيكا وايطاليا ؛ وهى تبـذل فى استبقاء صـداقة ايطاليا جهودا واضحة ، ولا ترى بأسا من ممالأتها فى مشروع اعتدائها على الحبشة لأنها تخشى إن سلكت سبيلا آخر أن تلقى بايطاليا فى أحضان ألمانيا ، و رابضة متربصة تحاول أن تحدث هذه الثغرة فى الجبهة الخصي ثم إن فرنسا من جهة أخرى تبذل نفوذها فى تسيير دول الا الصغير — يوجوسـلافيا ، ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا — الغاية التى تعمل لها دائما ، وهى احاطة ألمانيا بسياج قوى الدول الخصيمة ؛ والواقع أن ألمانيا ما زالت تشـعر أنها بـ هذه الحركة تقع فى نوع من العزلة السياسية والعسكرية يدفعها البحث عن أنصار وحلفاء ، وهى قد استطاعت أن تستخلص بول من أحضان فرنسا ، ولـكن بولونيا ليست قوة كبرى يعتم أما بريطانيا العظمى ، فهى تشق سـبيلها فى هذا المعترك ، جانب فرنسا فى الغالب ، ولـكن دون خصومة ظاهرة لألماني وهى تخاصم اليوم ايطاليا من أجل المسألة الحبشـية ومطام الاستعمارية فى شرق أفريقيا ، ولـكنها تحاول أن تجتذب فر الى جانبها فى هذه الخصومة ، وقد استطاعت أن تحرز بعد النجاح فى هذا السبيل

والخلاصة أن المترك الدولى فى أوربا يقوم اليوم على نفس الأسس القـديمة التى كان يقوم عليها قبـل الحرب الـكبرى : السياسة القومية ، والتوازن الأوروبى السياسى والعسكرى ؛ وإذا لم يكن هذا التوازن قد استقر الآن بصورة فعلية فانه يسير فى سبيل الاستقرار ، ومتى تم هذا الاستقرار استطعنا أن نعين المعسكرات الخصيمة التى تشترك فى الحرب الأوربية القادمة ؛ وإذا قلنا الحرب الأوربيـة فانما نعنى الحرب العالمية ، لأن التوازن الأوربى هو أساس التوازن العالمى ؛ وليس فى العالم بعد أوربا قوة يمتد بقوتها السياسية والعسكرية غير اليابان وأمريكا ؛ فأما اليـابان فانها تتخذ لنفسها موقفا خاصا ، ولا يمكن تصورها متحدة مع أية دولة أوربية فى ميدان غير الشرق الأقصى ، وأما أمريكا فانه يصعب تصورها ملقية بنفسها فى غمر المعركة الأوربية مرة أخرى ، ومن المحقق أيضا أن الذى يقود أوربا الى ميادين الحرب أو السلام هى نفس الدول التى قادتها إلى الحرب الكبرى وهى ألمانيا وفرنسا وروسيا وبريطانيا العظمى وإيطاليا

وهنالك عنصر لا يمكن اغفاله فى تطور هذا المترك ، هو عنصر الدبلوماسـية السرية ؛ وقد بلغت الدبلوماسية السرية ذروتها قبيل الحرب الـكبرى وفى خلالها ، وكانت مبعث طائفة من المفاجآت والتطورات الخطيرة التى غيرت مصاير الحرب ، ولم ينقطع هذا العنصر السرى فى الدبلوماسية الأوربية عن العمل فى أى وقت ، ولـكنه هدأ قليـلا عقب الحرب ، أمام اضطرام صيحات السلام والتفاهم الدولى ؛ بيـد أنه يستعيد الآن كل أهميتـه القديمة ، وإذا لم يكن من المستطاع أن نتلمس آثاره الآن فى المترك الأوربى ، فانه بلا ريب سـيحدث أثره فى الوقت المناسب . وعلى أى حال فان السياسة الصريحة لم تكن يوما عماد دول عسكرية استعمارية مثل فرنسا وإيطاليا وألمانيا وروسيا ؛ وقد رأينا كيف لعبت المساعى السرية دورها فى سلخ إيطاليا عن التحالف الثلاثى أثناء الحرب الـكبرى فمثل هـذه المساعى يبذل اليوم من جميع النواحى ، وإيطاليا ما زالت تقف بين الخصمين القديمين — ألمانيا وفرنسا — فى مفترق الطريق ؛ ولا ريب أن المستقبل فياض بمختلف التطورات والمفاجآت

(***)

الاستعمار والتعليم *

للأستاذ ساطع بك الحصرى

مدير التعليم العام بوزارة المعارف العراقية

عند ما طلب إلىّ نادى المعلمين إلقاء محاضرة عامة فى هذه القاعة خطرت على بالى موضوعات عديدة ، اخترت منها موضوع « الاستعمار والتعليم » ولما ذكرت هذا الموضوع فى حـديث لأحد أصدقائى اعترضنى بقوله : « لم اخترت هـذا الموضوع وقد تخلصنا من شبح الاستعمار ؟ » فقلت له حقاً لقد تخلصنا من الاستعمار ولـكن بلادنا فى اتصال ببلاد لا تزال تلعب فيها أيدى الاستعمار . ولا يسوغ لنا وهذه هى الحال أن نتغاضى عما يضمره الاستعمار من الكيد للأمم المستضعفة ؛ زد على ذلك أن للاستعمار أساليب خداعة ، فقد عرف المستعمرون كيف يدسون أساليبهم هذه تحت أستار جذابة قد تفوت المرء لأول مرة قبل أن ينفذ إلى دقائقها . وأخشى أن بعض هذه الأساليب قد يصل إلينا ويتسرب إلى أذهاننا وينخر فى جسمنا من غير أن نشعر به ونتنبه إلى منابعه . لذلك وجب علينا كأمة فتحت عينيها للحياة أن نهتم بهذه المباحث ونمعن فى درسها

لقد أخذ الأوربيون بعد الحرب العظمى يهتمون بسياسـة التعليم تنفيذاً لأغراض الاستعمار . وقد عقدوا مؤتمرات عديدة — بعضها قومية وبعضها أممية — للمـداولة فى هذه الشؤون ؛ وخليق بنا أن ندرس سياسة الاستعمار من حيث علاقتها بالتعليم ؛ ولهذه الملاحظات جئت أتحدث إليكم هذا المساء عن « الاستعمار والتعليم »

* * *

تعلمون أيها السادة أن كل نظام تعليمى يتكيف عادة بمطالب السياسة العامة ، لذلك لابد لنا ونحن نبحث هذا الموضوع أن نعرف أهداف الاستعمار لنصل إلى أهداف السياسـة التعليمية فيه . فلننظر ما هى غاية الاستعمار

لقد اعتاد علماء الاجتماع أن يقسموا المستعمرات إلى ثلاثة

* نص المحاضرة القيمة التى ألقاها الأستاذ ساطع بك الحصرى ببغداد فى الأسبوع الماضى

أصناف أساسية من حيث الغايات المتوخاة من الاستعمار وهى : (١) مستعمرات الاتجار (٢) مستعمرات الاستغلال (٣) مستعمرات الاستيطان

يبدأ المستعمرون عادة بالاستعمار التجارى ، فيختارون ميناء أو نقطة جغرافية مهمة فى بلاد ما ، فيؤسسون فيها مستعمرة صغيرة يتخذونها مركزاً للاتجار ، ومن هـذا المركز يعقدون صلاتهم مع داخل البلاد ، فيعملون بذلك على احتكار تجارتها ، دون أن يستولوا على داخليتها . فغايتهم من هذه المستعمرة تنحصر فى « الاتجار » ، غير أنهم كثيراً ما لا يقفون عند هذا الحـد بل يتغلغلون فى داخلية البلاد ، ويستولون على جميع منابع الثروة الموجودة فيها ، وهم فى هذا السبيل لا يكتفون بتأسيس ما تحتاج إليه التجارة من مؤسسات ، بل يتوسعون فى مؤسساتهم داخل البلاد ويستولون على كل ما يجب الاستيلاء عليه لاستغلال مرافقها . فالغاية الأصلية من مثل هذه المستعمرات تكون « الاستغلال »

غير أن بعض المستعمرين لا يكتفون بذلك أيضاً ، فانهم لا يقصرون حظهم على استغلال المرافق الاقتصادية والثروة ، وإنما يرمون أحياناً إلى تركيز سياسة الاستيطان جاعلين من البلاد التى يستعمرونها وطناً جديداً لأبناء جلدتهم . وهذا أهم أنواع الاستعمار وأشدها خطرا

وهذه الأنواع لا يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كلياً لأن كثيرا ما يحول جشع المستعمرين البلاد التى يستعمرونها من شكل الى شكل آخر من الأشكال الثلاثة التى ذكرناها

ان أبرز الأمثلة على « مستعمرات الاتجار » هى المستعمرات التى أحدثها الأوربيون فى سواحل الصين . أما أحسن الأمثلة على « مستعمرات الاستغلال » فهى الهند حيث تغلغل الانكليز وكانت أغراضهم الأولية استنزاف المنافع الاقتصادية من تلك البلاد الغنية المترامية الأطراف . وأما أوضح النماذج لمستعمرات الاستيطان فنجده ماثلا فى كندا وأوستراليا حيث اتخذ المهاجرون من الانكليز وغيرهم وطناً جديداً لهم فيها

وقد يتطور الاستعمار فى بعض المستعمرات من طور الى آخر . مثال ذلك تحول الاستعمار فى الهند من شكل الاتجار الى شكل الاستغلال ، وتطور الاستعمار فى كندا وأوستراليا من الاستغلال الى الاستيطان ، ونجد بعض المستعمرات ينفذ الا فيها بشكلين فى وقت واحد . فقد حل الفرنسيون ا مستعمرين لاستغلالها ، ثم ما لبثوا أن أخذوا يرمون الى الاستيطان فى بعض أقسام الجزائر كما هو واقع

ان الغايات الثلاث التى ذكرناها هى الغايات الأساسية عملت عملها فى تأسيس المستعمرات . غير أن المستعمرين أ يتوخون من الاستعمار غايات أخرى لا تقل أهمية عنها . الغاية العسكرية ، فبعض الدول تقصد من وراء استعمارها ب ايجاد قواعد ارتكاز وحركة لجيشها وأسطولها ، وبعض ا لا تكتفى بذلك بل تعمل على ايجاد جنود من أهل ا المستعمرة تضيفه الى جيشها معززة به قوتها المحاربة ؛ وقد هذه المطامع فى الحرب الكبرى ، اذ حاولت كل دولة من ا الاستفادة الى أقصى حد ممكن من مستعمراتها ، فلم تكتف باست الثروة منها واستغلال خيراتها لمعيشة جنودها ، بل عملت أخذ أفراد من أهالى المستعمرات زادت بهم جيشها

وانى لأذكر المارشال « ليوتى » الذى يعتبره الفرنسـ مؤسساً الامبراطورية فى إفريقية الشمالية ، وقد أسهب هذا ا الكبير فى الخطبة التى ألقاها عند دخوله عضواً فى الأكا الفرنسية فى وصف « فوائد المستعمرات للجيش » واعترف أبناء المستعمرات الذين جندوا فى خلال الحرب الماضية قد و على فرنسا بما قدموه من تضحيات بأرواحهم ملايين من الأنفس الفرنسية »

وزيادة على ذلك فقد بين المرشال ليوتى فى خطبته أن فر استفادت من مدرسة المستعمرات استفادة كبيرة من « تكوين الضبـــاط والقواد » أيضاً ، لأن جل قوادها الذ بلغوا بها إلى النصر الأخير قد نشأوا فى بيئة المستعمرات ، و كبار رجالها على العيشة فى البلاد المستعمرة فنشأوا خير لأن حياة المستعمرات تربى فى المستعمر الناشئ القوة المعـ التى هى دعامة من دعامات الجيش . فالقادة المستعمرون فى الاستعمار يضطرون إلى التذرع بالحزم والتدرب على اتخـ القرارات الآنيّة وهم بذلك يتكونون رجالا أشداء فى عقو وأخلاقهم

ان الكتاب والمفكرين من رجال الاستعمار لا يقفون عند هذا الحد فى تعداد فوائد المستعمرات ، بل يسترسلون فى شرح فوائدها المعنوية أيضاً ، فيقولون إن المستعمرات لا تكون للدولة المستعمرة مناجم ثروة مادية فحسب ، بل هى مباءة استغلال للقوة المعنوية أيضاً ، إذ تجد هذه الأمم فى المستعمرات مجالا واسعاً للجد والنشاط والاقدام فيزدهر أملها المرجو فى المستقبل . فان الأمم القانعة بحدودها تمتاز التراخى والكسل ، بينما تغير المستعمرات نفسية الأمة وتخلق فيها نشاطاً حياً وآمالا جديدة ؛ ويمكننا أن نشبه تأثير المستعمرات فى نفسية الأمم بتأثير الأولاد فى نفسية العائلات ، فالولد ينشئ للعائلة أمل المستقبل ويحملها على العمل ، وكذلك المستعمرة تقدم للأمم المستعمِرة دافعاً جديداً للحياة والكفاح

* * *

بعد أن ألقينا هذه النظرة العامة على غايات الاستعمار ومراميها نستطيع أن ننتقل الى بحث « سياسة التعليم » فى الاستعمار

إن هذه السياسة تتجلى فى ثلاثة أنواع من المعاهد التعليمية

أولا — المعاهد التى يؤسسها المستعمِر فى وطنه الأصلى لخدمة الاستعمار .

ثانياً — المعاهد التى يؤسسها المستعمر فى المستعمرات لتربية أبنائه

ثالثاً — المعاهد التى يؤسسها فى المستعمرات لتربية أولاد الأهلين فى القطر المستعمَر

فالنوع الأول من المعاهد التعليمية الاستعمارية سيبقى خارجاً عن نطاق بحثنا هذا ، أما النوع الثانى من المعاهد التعليمية التى ينشئها المستعمر فى المستعمرات لتربية أولاده فهى أيضاً لا تستدعى اهتماماً كثيراً لأنها تشبه بوجه عام المعاهد التعليمية التى تنشأ فى الوطن الأصلى ولا تختلف عنها إلا من حيث زيادة بعض الدروس لاعداد أولاد المستعمرين للقيام بأعمال استعمارية

والمهم أن ندقق فى النظم التى رسمها المستعمر لتعليم أولاد الأهلين فى المستعمرات وأن نستعرض السياسات المختلفة التى ابتدعت فى ذلك . إن أقدم هذه السياسات كانت السياسة السلبية فى التعليم ، وهى تتلخص فى عدم تعليم أحد من أبناء الأهلين ، وقد ترمى إلى بذل الجهد فى محو المتعلمين ، وهذه سياسة تجلت بوضوح تام فى أوائل القرن التاسع عشر فى أمريكا

ففى أمريكا الجنوبية عندما ثار الأهلون على المستعمرين الاسبانيين كتب القائد العام إلى مليكه يبشره بانتصار جيشه فى إحدى المعارك ، وكان مما قال فى تلك الرسالة التاريخية : « إنه عامل المتعلمين من أبناء البلاد معاملة العصاة وقضى عليهم قضاء وحاكمهم محوا ، وإنه استأصل بهذه الصورة فكرة التمرد والعصيان من جذورها استئصالا تاماً » . وحتى فى أمريكا الشمالية مثلا كان يحظر فى الولايات المتحدة الأمريكية تعليم الزنوج القراءة والكتابة ؛ وكان كل أبيض يعلم زنجياً يعاقب بالحبس والجلد . وعلى هذا المنوال كانت سياسة الاستعمار فى التعليم بادىء ذى بدء فى موقف عدائى مطلق تسعى إلى عدم التعليم ، وتعمل على محو المتعلمين

غير أن سياسة الاستعمار لم تستطع الاستمرار على هذه الخطة السلبية ولا سيما فى المستعمرات الاستغلالية ؛ لأن المستعمرين وجدوا أنفسهم فى تلك المستعمرات فى حاجة شديدة إلى الاستعانة بأهالى البلاد لاستغلال المرافق الاقتصادية والثروة الطبيعية ، وشعروا بضرورة تعليمهم لاعدادهم لتلك الأعمال ، ولذلك أخذوا يؤسسون معاهد التعليم فى المستعمرات ؛ وكان العامل الأساسى لتأسيس هذه المعاهد تخريج طائفة من أهالى المستعمرات يخدمون المستعمر فى مصالح الحكومة والشركات ؛ وفى المشروعات المختلفة التى تتطلبها مقاصد الاستغلال والاستعمار ، هذا من جهة ، ومن الجهة الأخرى فكر بعض المستعمرين فى مسألة التعليم تفكيراً آخر فذهبوا إلى أنه يجب أن يرافق الفتح السياسى فتح معنوى ، بحيث يتقرب أهالى المستعمرات من المستعمرين إلى أن يندمجوا فيهم اندماجاً ، وقد فكروا فى سبيل تحقيق هذا الغرض أولا بنشر لغة المستعمر ، وثانياً بتعليم أهالى المستعمرات تعليما ينشىء فى نفوسهم حب المستعمر فيستسلمون له عن طواعية

وقد برز النوع الأول من سياسة الاستعمار أكثر وضوحاً فى الهند فى ظل الاستعمار الانكليزى ، كما تجلى النوع الثانى فى الجزائر بالاستعمار الفرنسى

وكان الفرنسيون يأملون من سياستهم هذه تقريب المستعمرين اليهم ، وظنوا أنهم بنشرهم لغتهم بينهم واشرابهم ثقافتهم يغرسون حبهم فى قلوب الأهلين ، لذلك جعلوا اللغة الفرنسية محوراً لكل درس فى مناهجهم ، وقالوا بصراحة إن المدرسة يجب أن تكون قبل كل شيء معهدا لتعليم اللغة الفرنسية ؛ وكذلك اهتموا بمناهج الأخلاق فى المدارس لتعليم أولاد المستعمرات كل ما يحبب الأهلين فى الفرنسيين ، فنجد فى مناهج الأخلاق فى مدارس الجزائر مثلا قسما خاصاً فى واجبات الأهلين نحو فرنسا ، يشغل حيزا مهماً بين الواجبات الأساسية كالواجبات نحو الله ، والواجبات نحو الناس . ومما جاء فى هذا المنهج « ما يترتب على أهل الجزائر من الواجبات نحو فرنسا ، مقابل الحماية التى تسديها اليهم والعدل الذى أدخلته الى بلادهم ، والأمن الذى نشرته فى ربوعهم ، ونعم التعليم والحضارة التى أغدقتها عليهم . . . الاحترام الذى يجب أن يشعروا به نحو من يدير البلاد باسم فرنسا ، والاحترام الذى يجب أن يظهروه نحو العلم الفرنسى »

وهكذا نجد الاستعمار بعد أن ترك السياسة السلبية فى التعليم التى وصفناها سلك طريقاً آخر يمكننا أن نسميه : « التعليم لتسهيل عمل الاستعمار »

* * *

على أن التجارب القاسية لقصر التعليم على خدمة الاستعمار وحده قد أسفرت عن نتائج سيئة إذ ما عتمت أن أحدثت رد فعل عند أولاد المستعمرات فقد تغيرت أحوالهم بعد مدة قليلة أو كثيرة من تخرجهم من المدارس ، وبدلا من أن يكونوا مطبوعين على حب المستعمر يتفانون فى سبيل خدمته وفق الثمرة التى كانت مرجوة من التعليم الاستعمارى، أصبحوا على نقيض ذلك يكرهونه ويكافحونه . فأسقط فى أيدى المستعمرين وطفق ساستهم وعلماؤهم يفكرون فى الموضوع ويدرسونه فيجدون أنفسهم كلما أمعنوا فى تعليم أولاد المستعمرات بطرائق تضمن محبة الأهلين لهم ، تذهب الجهود سدى ، إذ لا يلبث أكثر هؤلاء الأولاد بعد تخرجهم أن يقلبوا للمستعمر ظهر المجن ، ففكر علماء المستعمرين فى هذه المعضلة فوجدوا أن هذه نتيجة طبيعية ، لأن ابن المستعمرات إذا ما قرأ تاريخ الأمة المستعمرة ودرس الثورات وقف على مطالب الشعب من الحكومة يتحمس بهذا الحماس أنف المستعمر فيشب راغبا فى تطبيق مادرسه . وهكذا تطو آراء المستعمرين فى سياسة التعليم ووقعوا فى حيرة لا يدرون ماذا يفعلون

هل يركنون فى المستعمرات إلى عدم التعليم ؟ ولـ يعلمون أن عدم التعليم لا يمكنهم من استغلال البلاد المستعم إذ يجبر المستعمر فى تلك الحالة على ممارسة الاستغلا المستعمرات بقواه الذاتية فيضطر الى الاتيان بالعمال من الأصلى وهو لا يجد فى أمته العدد الكافى منهم ، وإذا و فاستقدامهم إلى المستعمرات وتشغيلهم فيها يكلفه كثيراً في المنتوج الاقتصادى أغلى سعراً بحيث لا يستطيع أن ين منتوجات غيره فى الأسواق العالمية ، ومن ناحية أخرى لا أن يكون العامل مفيداً فى أى عمل ما لم يكن قد أخذ بنص من التعليم فى عصر الصناعة الذى نعيش فيه

وقد ظل المستعمرون فى حيرة من هذه المشكلة : التعليم المستعمرات يؤدى الى ثورة الأهلين عليهم ، وعدم الت فى المستعمرات يعيقهم عن الاستغلال ؛ ففكروا كثيراً وأ وجدوا ضالتهم بطريقة مبتكرة فى سياسة التعليم وهى : « الت بغير تثقيف » . فقالوا نعلم أولاد المستعمرات من غير تثقيفهم . نعلمهم تعليما ضيقاً جداً يجعلهم آلات صماء فى أي الاستعمار . وقد بذلت الدول المستعمرة جهودها فى وضع للتعليم على هذا الأساس ، يجعل التعليم وسيلة ميكانيكية إذ يكون لغايات محدودة معينة بدون أن يدخل على هـ التعليم أى عنصر من عناصر الثقافة العامة . وقد تفننوا إيجاد هذه الأساليب وابتكار طريقة خبيثة لتدريب أب المستعمرات على أن يكونوا مسامير فى صفحة خشبية ، أو عجلا فى آلة ميكانيكية ، محرومين من أى لون من ألوان الثقافة العا

وهكذا اتفقت سياسة الاستعمار التعليمية على وجوب الأ بالتعليم بدون تثقيف ، وهذا آخر ما وصلوا اليه لحل معضلة التع فى المستعمرات . وقد بدأ المستعمرون من يوم تفتحت قرائحهم بهذا الابتكار يجاهدون فى تحقيق غاياتهم ، وقد أرادوا أ يموهوا على الناس ويستروا مقاصدهم الملومة تحت أستا حيل مختلفة ، فقالوا بأن هذا النوع من التعليم الابتدائى والمع

هو الذى يفيد أولاد المستعمرات أنفسهم ؛ وادعوا بأن التعليم الثانوى والعالى وكل نوع من أنواع التعليم الأوربى يضير الأهلين ؛ وقد بذلوا جهوداً عظيمة ليقنعوا الأهلين بذلك ، وقاموا بدعايات كثيرة نشروها لبث هذه الفكرة وتوجيه الأمم المستعمرة الى هذا الضرب من التعليم

مع هذا جابه المستعمرون مشاكل كبيرة : جوبهوا بحقيقة مرة وهى تعذر السيطرة التامة على التعليم فى المستعمرات ، اذ فى وسع ابن المستعمرات الذى يرغب فى التعليم ولا يجد فى بلاده العلم الذى يريده أن يقصد الى بلد آخر فى طلب العلم

ويجدر بنا أن نذكر فى هذا الصدد المناقشات التى جرت فى ايطاليا لمعالجة مسألة التعليم فى طرابلس الغرب ، فعند ما أقدموا على الغاء المدارس الثانوية والعالية والدينية قال أحد رجال التربية فى روما خلال مناقشة لهذا الموضوع : إننى لا أوافق على الغاء هذه المدارس ، اذ يجب أن نعلم أننا اذا ألغينا هذه المدارس لا نستطيع أن نمنع الذين يريدون الذهاب من أبناء طرابلس الغرب الى الجامعة الزيتونية فى تونس أو الجامع الأزهر فى مصر ، وهؤلاء الشبان يحتكون هناك بشبان من أمم مختلفة ويتلقون ثقافات واردة من أنحاء العالم ويرجعون بأفكار أشد وبالا على سياستنا الاستعمارية . فخير من إلغاء هذه المدارس إذاً أن نحدد التعليم فى داخل طرابلس الغرب لنؤسس مدرسة عالية نحدد تعليمها ونجعل النشء مرتبطين بها فلا يضطرون الى السفر الى الخارج فى طلب العلم ويعودون الى بلادهم وقد تسممت أفكارهم كما قلت

ان الخطط التى وضعها المستعمرون فى هـذا الباب مختلفة باعتبار المشاكل العديدة التى يريدون حسمها فيعمدون لتحقيق كل مآرب من مآربهم بخطة منها . ومما يلفت النظر انتباههم الى أمر انتقال الطلاب من أبناء المستعمرات من بلد الى آخر حيث يقتبسون آراء جديدة ويستلهمون نزعات حديثة ، لذلك عمدوا الى تدابير يقدزون من ورائها فصل الأقطار عن بعضها لجعلها مختلفة اللغة

فقد أخذ الفرنسيون فى المغرب يفرقون بين البربر والعرب وغيرهم بحرمان البربر من تعلم اللغة العربية حتى يجعلوهم بعيدين عن التأثر بالمدارس التى تدرس العربية أو ما يكتب بهذه اللغة فى الأقطار الأخرى

وهناك فكرة أحيت بعض الأمل فى نفوس المستعمرين وهى السعى لنشر اللغة العامية ، وهذه الوسيلة تباعد بين الأقطار العربية وتسهل على المستعمرين أغراضهم . وقد بثوا لهذه الفكرة دعايات منوعة : دعايات بدأها المستعمرون فانطلت مع الأسف على بعض أبناء البلاد المستعمرة إذ أن بعضهم خدعوا بها وروجوا لها ، وقد طلا المستعمرون هذه المكيدة تحت عنوان نشر التعليم بين طبقات الشعب وقالوا (مادام الجمهور فى الأقطار العربيـة لا يعرف اللغة الفصحى غالباً ، فيجب تعليمه بلغته المحلية العامية . ولماذا نضيع عليه الوقت فى تعليم الفصحى وقواعدها الكثيرة وأساليبها المويصة ؟) وقد وجدت هذه الفكرة بعض الأنصار ولا يزال لها مؤيدون فى بعض الأقطار العربية مع أنها وليـدة الاستعمار !

ومن حسن حظ الأمة العربية أن هذه الفكرة لم تعمر كثيراً فى حينها . مع هذا نجد بعض الأوربيين قد أخذوا يعودون إلى هذه الفكرة وصاروا يعتقدون بأن السينما الناطقـة والراديو من المسائل التى ستجبر البلاد العربية على أن تفسح مجالا أوسع للغة العامية لأن التمثيل والكلام باللغة العامية يرضى الدهماء أكثر من الفصحى ، فيجب علينا نحن أن ننتبه إلى هـذا الخطر الأخير خطر انتشار اللغة العامية كما يشتهيه المستعمرون ، وهذا الخطر الذى يتمثل أمامنا ربما كان خطراً كبيراً لأن الموضوع يخالطه شىء كثير من المنفعة المادية : لأن التمثيل باللغة العامية يكسب الممثلين أكبر عدد من النظارة ، ولا ريب فى أن على كل مفكر عربى أن يحارب هذا السلاح الأخير الذى يرجو منه المستعمرون خيرا عظيما لمقاصدهم على حساب الضرر البليغ بالبلاد العربية ؟!

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur والكلب المسعور

وصل الفائت

اكتشف بستور لقاحا يحصن الشياه من داء الجمرة ، وذلك باضعاف مكروبها ثم حقنه فى الشياه ، فتقوى بعد ذلك على مقاومة الداء . ونجح اللقاح واهتزت الدنيا له . وبعد زمن أخذت ألقحة بستور تقتل بعض الشياه بدل تحصينها وكثرت الشكوى . فألقى بستور محاضرة فى اللقاح ولم يذكر تلك الشكاوى ، وتحدى كوخ وكان حاضرا إلى الحجاج فقام وقال إنه يجيبه بالقلم لا باللسان

ولم يمض زمن طويل على هذا حتى جاء كوخ بجوابه الموعود ، فكان جواباً بين الجد والهزل ، شديداً فظيعاً ؛ بدأ كوخ بقوله إنه أتى من بعض وكلاء بستور بشيء من هذه المادة الثمينة الغالية التى يقال لها لقاح الجمرة ، ثم استطرد يسابقه بلسان سليط :

أحقاً قال بستور إن اللقاح الأول يقتل الفئران ويُعفى الخنازير الغينية ؟ إذن لقد قام كوخ بتجربته فوجده لا يقتل حتى الفئران . وبعض عينات غريبة منه قتلت الشياه !

وهل حقاً قال بستور إن لقاحه الثانى يقتل الخنازير الغينية ويُعفى الأرانب ؟ إذن لقد قام كوخ بتجربة هذا اللقاح أيضاً فى دقة وعناية فوجده يقتل الأرانب ، ويقتلها فى الأغلب قتلاً سريعاً . ووجد أنه يقتل الشياه أحيانا ، تلك الشياه التى أراد بستور من هذا كله أن يحصنها من الموت

ثم أحقاً يعتقد بستور أن هذه اللقاحات لقاحات من مكروب الجمرة ، ومن مكروب الجمرة وحده ؟ إذن فقد قام كوخ على حذر بامتحانها ، فوجدها تعجّ بمختلف الأحياء ، فمن كل كُرَيّة ومن كل عُصَيّة دخلت اليها دخول الضيف الثقيل لا أهلا به ولا سهلا

وأخيراً ، أحقاً إن بستور يتحرّق تحرقاً إلى كشف الحقيقة خالصة ؟ إذن فلمَ لم يخبر الناس بجميع النتائج التى جاءت لقاحه بعد أن شاع استخدامه وذاع ؟ لِمَ لم يخبرهم بالحالات الفاشلة الخائبة كما أخبرهم بالحالات الناجحة الصائبة ؟

ثم ختم جوابه بقاصمة الظهر ، قال : « إن هذا مسـ قد يُستساغ فى الدعاية لبيت من بيوت التجارة ، أما العلم فيجـ أن يقيئه قيئاً »

فأجاب بستور على هـذا النقد بنشرة تضمنت حجـ غريباً لا يجوز حتى على محكّمين فى مناظرة بقرْية فى الريف استكبر على كوخ أن يدّعى أن ألقحته تحوى أخلاطا ، مكروبات . قال : « لقد كانت صناعتى من قديم فصل المكرو وتربيته خالصا من كل شائبة . صناعة اصطنعتها عشرين عاماً قـ ميلاد كوخ فى عالم العلم سـنة ١٨٧٦ ، فدعواه أنى لا أعر كيف أربى المكروب نقياً لا يمكن أن تكون إلا هزلا وهذراً

وأبت الأمة الفرنسية بوطنية صادقة أن تؤمن بأن كو استطاع أن يزحزح بطلها العظيم من عرشه العالى ، وأن يطل ربا للعلم ، وشرك صـغراء الأمة فى ذلك كبراؤها ، وعلى كل ـ فما كان ينتظر الناس من ألمانى غير هذا ؟ ! وما أسرع ما انتخـ بستور عضوا فى المجمع الفرنسى Académie Française فمنحـ كبرى المِنَح التى يطمع فرنسى فيها ، وفى يوم جلوسه بين أعضاء المجمع الأربعين الذين يسمونهم بالخالدين قام أرنست رينا Ernest Renan بالترحيب به ، وهو العبقرى الزنديق الذى جـ من يسوع الرب بشرا رجلا غفر كل شيء لأنه فقِه كل شيء عرف رينان أن بستور لو كان ستر الحق لما ذهب هذا بكل فضله ولم يكن رينان عالما ، ولكن كان له من الحكمة والفطنة ما يدرا به أن بستور أتى بشيء فخم عظيم لما أثبت أن الجراثيم الضعيفة تمنّع الأجسام فلا تنالها الجراثيم القوية ، حتى ولو لم تبلغ هذ المناعة مائة فى المائة

التقى هذان الرجلان فى هذا اليوم المهيب ، فالتقى منهم نقيضان : بستورُ المقاصر المحارب الوثّاب الملِئُ بشتيت من عقائد هوّشت عليه أحيانا وجه الحق ، ورينان فى ضخامته كالجبل يخاطبه جالساً من علٍ بنفس ساكنة مطمئنة لا تهزها الريا الهُوج ، وكيف يهتز جسمه لشيء أو تتحرك نفسه لأمر ،

هو قد بلغ به الشك أن ارتاب فى وجود نفسه ، وارتاب فى قيّم الأعمال فلم يقم لعمل فصيّره طول القعود من أسمن رجال فرنسا

رحّب رينان بستور إلى المجمع فأسماه عبقريا ، وقرن اسمه بأسماء أكبر من عُرف من العباقرة ، ثم عرج يُقرّع صياد المكروب الشيخ المشلول المضطرب تقريعاً خافتاً خافياً ، قال : « إن الحقيقة ياسيدى كالمرأة الغَنِجة اللعوب ، لا تملك بالعاطفة الكثيرة تُبذل لها ، وكثيراً ما تأتيك منصاعة باعراضك عنها . وقد تسلم اليك قيادها فتظن أنك مَلَكتها فاذا بها تُفلت من قبضتك ، فاذا أنت اصطبرت عليها عادت فوضعت عنقها فى يدك . ولا عنها وداع وما سقط فيه من دموع أن تعود إلى الظهور ، ولكنك إذا أحببتها فغلوت لم يكن لك منها غير البين والقطيعة »

لا أظن أن رينان ، وهو الحكيم ، خال أن كلماته الجميلات هذه سيكون لها أثر ولو قليلا فى إصلاح المعوجّ من بستور ، ولكنها كلمات ترينا فى اختصار علة ما لاقى بستور فى حياته من مواجع ، وهى تعلمنا مايجر الرجل المجنون على نفسه من المآسى والأحزان إذ هو خال أنه يستطيع قلب العالم فى السبعين عاما التى أذن الله له أن يحياها

— ٧ —

بعدئذ أخذ بستور يضع أنابيب من الزجاج فى حلوق الكلاب وهى تتلوى وتتضوّر من داء الكَلَب . وكيف استطاع أن يضع هذه الأنابيب فى هذه الحلوق لهذه الضاريات ؟ لا يعلم هذا غير الله . هذان خادمان قائمان على فكَّى كلب قوى عصىّ يفتحان فاه كَرْها واغتصابا . وهذا بستور قائما فى وجه هذا الكلب تكاد لحيته تمس هذه الأنياب وفيها الموت المرير . وهذا هو يمص فى أنبوبته من حلق الكلب بعض رُغائه ، ليأتى منه بعيّنة يبحث فيها عن مكروب الداء . وأحيانا يناله الرشاش من هذا الرغاء فلا يأبه له وقد جاز أن يكون فيه القضاء

أريد الآن أن أنسى ماقلته عن حب بستور للدعاية ، فتصوّرى عينيه الزرقاوين وهما تحدقان فى حلق هذا الكلب الهائج المسعور لا يتفق مع هذه الذكرى

ليت شعرى ما الذى وجه بستور إلى صيد مكروب الكَلَب ؟ لقد كان فى الوجود عشرات من الأدواء يجهلها العلماء ، أدواءٌ قتلت من الناس أضعاف ما قتل داء الكَلَب ، ولم يكن بها من الخطر على جماعة مُشاع مثلُ الذى كان بهذا الداء اللعين الذى لا ينجو صاحبه أبداً ، فما هو إلا أن ينفث الكلب من قيده فتقع الواقعة التى لا مردّ لها

يترجّح عندى أن شاعريته ، والفنّ الحق فى نفسه ، هما اللذان دفعاه إلى اختيار هذا الداء على الأدواء جميعا . قال بستور : « لطال ما ساورتني صرخات ضحايا هذا الذئب المجنون الذى كان يهبط على الناس فى شوارع اربوا Arbois لمّا كنت طفلا ... » عرف بستور من صباه كيف كانت دماء الناس تبرد لصوت كلب مسعور . وذكر أنه قبل مائة عام أو دونها كان الفرنسيون يشتبهون فى الرجل يحسبونه مصابا بالكَلَب فيُذْعرون فيقومون عليه فيسمّونه أو يخنقونه أو يطلقون عليه الرصاص . وشاع هذا حتى سُنّت القوانين لحماية هؤلاء المساكين . ذكر بستور كل هذا فاعتزم أن يعيد فى الناس السلام ، ويعنع عنهم هذه الآلام والآثام

بدأ بستور هذا البحث الذى انتهى بأن كان أبدع أبحاثه وأصدقها ، فاذا به يبدؤه على عادته بالأخطاء . جاء إلى طفل يموت من داء الكَلَب فأخذ بعض ريقه وامتحنه فوجد فيه جرثومة غريبة ساكنة فأسماها اسماً لا يتصل بالعلم كثيراً ، أسماها « مكروبة الثمانية [1] » ، وما أسرع ما حاضر أعضاء الأكادمية وأشار إلى هذه المكروبة بأن لها صلة بالسبب الخافى لداء الكلب ، واستقر على هذا الرأى ، واستمر يجرى فى اطمئنان وراء هذا المكروب ، ولكنه لم يلبث غير قليل حتى اتضح له أنه إنما جرى وراء برق خُلّب . فانه بمعونة عَوْنيه وجد هذا المكروب فى أفواه أناس أصحاء كثيرين لم يقتربوا من كلب مكلوب أبداً

على أن هذا الضلال لم يدم طويلا حتى حملت بستور قدماه إلى الطريق الهادى إلى مخابئ هذه الأحياء ، قال لنفسه : « لقد قلّت الكلاب المسعورة فى هذه الأيام ، والشيخ البيطار بوريل Bourrel لا يبعث الآن لى منها إلا عددا يسيرا ، والمكلوبون من الناس أشد ندرة من الكلاب ؛ فلا بد لنا من إحداث داء الكَلَب فى حيوانات فى معاملنا كىّ نستطيع دراسته فى تواصل واستمرار »

(١) أراد أنها تشبه رقم ٨ الأفرنجية أى 8

وكان بستور فات الستين ، وكان مُتعَباً مجهوداً

وذات يوماً جاءوا إلى المعمل بكلب سعران اصطادوه بالوهق ضربوه فى عنقه ثم شـــدوا عليه ، فأمرهم بستور فأدخلوه وهو ينذر بالشر إلى قفص به كلاب أخرى كى يعضها ويعطيها من الداء مثل الذى به ، وجاء رو وشمبرلاند فأخذا من رُغاء فمه بعض الشيء ومصاه فى محقن وحقنا به من الخنازير الغينية ومن الأرانب ، واصطبرا ينتظران ظهور الداء فيها ، فـكان يظهر فى بعضها أحياناً ويتخلف عن بعضها أحياناً أخرى فساءهما تخلّفه ، وعض الـكلب المجنون أربعة من الـكلاب ، ومضت ستة أسابيع فاذا كلبان منها هائجان يضربان فى جوانب القفص ويموبان ، أما الآخران فمضت أشهر لم يظهر فيها عليهما من الجنون شيء . أمرٌ يُحيّر الباحث ويغيظه ، فهو دائماً ينتظر النتائج الواحدة تأتى من المقدمات الواحدة ، وقد اتحدت المقدمات هنا فـكيف اختلفت نتائجها ؟ لقد ضاع اتساق العلم وانسجامه ، لا فى هذه الـكلاب وحدها ، بل فى الخنازير والأرانب كذلك ، فقد يصاب من الستة الأرانب المحقونة اثنان ، يمدّان برجليهما الخلفيتين إلى الوراء من الشلل ، ثم يموتان بعد ارتجاجات من الصرْع عنيفة ، أما الأربعة الباقية فتظل قائمة تقضم الحشيش قضما ، فكأنما جرثومة الـكلب لم تخالط دمها أبدا

وذات يوم خطرت فكرة على بال بستور ، فأسرع إلى رو يحدّثه بها ، قال : « إن جرثومة الـكلب تدخل أجسام الناس بالعض عن طريق الجلد ، ثم هى تستقر بعد ذلك فى أمخاخهم وفقار ظهورهم ..... إن كل الأعراض تدل على أن هذه الجراثيم التى لا نراها ولا نستطيع كشفها تُغير دائماً على الجهاز العصبىّ . ففى هذا الجهاز العصبىّ إذن يجب أن نبحث عن هذه الجرثومة ..

ومن هـذا الجهاز قد نستطيع تزريعها وتربيتها حتى ولو لم نرها . . . . ولعلنا نستطيع أن نتخذ من مخ الحيوان طعاما لها فننمّيها فى جمجمته بدلا من قبابة الحساء . أن نتخذ من الجمجمة والمخ قبابة وحساء أمر غريب ، ولـكن من يدرى ؟ . . ثم إننا اعتدنا أن نحقن الرُّغاء الخبيث تحت جلد هذه الأرانب والخنازير ، فما أدرانا أن الجرثومات التى به لا تضيع فى أجسام هذه الحيوانات قبل وصولها الى أمخاخها ، لوددت والله أن أرشق هذه الجراثيم مباشرة فى هذه الأمخاخ رشقا »

أنصت رو لهذه الأحلام ، وانفتحت عيناه وسعَهما ولمتا لهذه الخيالات ... لو أن رجلا غير رو سمعها لظن بستور أصابه مس من جنون . يريد أن يتخذ من مخ الكلاب والأرانب بديلا من الأحسية ! ويريد أن يتخذ من جماجمها بديلا من القبابات ! أى عبث هذا وأية خرافة تلك ! أما رو فكان أفهَمَ لبستور من أن يَظن به خبالا . قال : « وما يمنعك من وضع المكروب فى مخ الـكلاب مباشرة يا سيدى الأستاذ ؟ أنا أستطيع أن أثقب لك به ثقبا صغيرا لا يؤلم الـكلب ولا يفسد مخه . وهذا أمرٌ علىّ يسير . . . »

فصرخ بستور فى وجه رو حتى أخرسه . ولم يكن بستور طبيبا ، فلم يدر أن الطبيب يستطيع أن يفعل هذا حتى فى الانسان وهو آمن . لهذا أجزعته الفكرة جزعا كبيرا . « ثقبٌ يخترق جمجمة الـكلب الى مخه ! يا للفظاعة ! والـكلب كيف إيكون ألمه ؟ والمخ بعد هذا كيف يكون صلاحه ، إن الـكلب يُشَلّ حتما ؟ لا ، لا آذن بهذا ؟ »

حنان قلب بستور كاد يفقده أكبر كشف أتاه ، ويضيّع عليه بل على الانسان أثمن تُحفة أهداها اياه . وأمام هذه التجربة القاسية الغريبة خارت من بستور قواه ، ولـكن رو ، رو الأمين لسيده ، رو الذى نسيه اليوم الناس أو كادوا ، رو هذا قام يحمى سيده من خَوَر نفسه ، فنجّاه بأن عصاه . ذلك انه اصطبر أياما قلائل حتى غادر بستور المعمل لبعض حاجته ، وعندئذ قام إلى كلب سليم فشممه قليلا من الكلوروفورم حتى أفقده الاحساس ، ثم ثقب رأسه ثقبا كشف عن مخه الحىّ ، فكان يدقّ بالنبض دقا بيّنا ، ثم أتى بقليل من مخ كلب كان قد مات مكلوبا فسحقه وحقن سحيقه فى مخ الكلب النائم برفق شـديد وهو يقول لنفسه : « لا شك أن سحيق هذا المخ مليء بمكروب الكَلَب ، فلعله مكروب دقّ فلم يكن فى استطاعتنا أن نراه »

واصبح الصباح فأخبر بستور بالذى كان . فصاح بستور فيه : « ويلك ماذا صنعت بالكلب المســـكين ! أين المخلوق التعيس ... لا شك أنه شُلّ ... لا شك أنه يموت ... »

ولـكن رو كان سبق فنزل بسرعة على السلم ، وفى لحظة عاد والـكلب ينط أمامه ، وإذا بالـكلب يتمسح بساقَىْ بستور ، ثم يدور يتشمم بين قبابات الأحسية القديمة تحت مناضد المعمل . عندئذ أدرك بستور قدر رو ومبلغ ذكائه . وأدرك كذلك أن

جديداً للتجربة انفتح أمامه . ولم يكن بستور يفرم
ب ، ومع هذا فان اغتباطه بالذى سمع ورأى أغراه بملاعبة
كاب خاصة . قال لسانه : « أهلا بكلبي العزيز ! أهلا بسيد
إب » . وقالت أحلامه : « ان هذا الكلب سيثبت أن
ى عن هذا الداء صائبة »

ولم يمض أسبوعان حتى تحققت أحلامه ، فسيد الكلاب يعوى عواء أليما حزينا ، وصار يمزق فراشه ويعض قفصه ، ت بعد أيام ، نعم مات هذه الميتة القاسية ، ولكنه مات ا من بعده على نحو ما ستعلم ألوف من الناس كانت ـه مثل ميتته

بهذه الطريقة اهتدى بستور ورو وشمبرلاند أخيرا إلى نقل الداء إلى الحيوانات نقلا أكيدا ؛ أعنى أنهم إذا حقنوا كروب فى مائة كلب أو خنزير أو أرنب أصاب الداء المائة ها ، وكأنى بك تستمع لبستور يقول لصاحبيه : « إننا نستطيع أن نرى المكروب ولا بأقوى المدسات ، فلا بد أن ا يرجع إلى شدة صغره . ولسنا نعرف طريقة واحدة لتربيته الأحسية بالقبابات ، ولكن فى استطاعتنا أن نبقيه حيا فى م الأرنب ، فهذه هى الطريقة الوحيدة لحفظه ونمائه »

أوُجِد أو يُوجَد أعجب من هذه التجربة فى كل الذى ان ويكون من صيادة المكروب ، أو فى أى علم آخر من علوم ! أم هل مارستْ تلك العلوم أمرا أبعد ما يكون عن ألوف فيها مثل الذى مارسه بستور وصاحباه : مكروبةٌ غير منظورة ، كل الذى يعلمونه من وجودها أنهم يستطيعون نقلها ى الأمخاخ والحبال الفقرية فى سلسلة طويلة من الأرانب والخنازير والكلاب ، وكل برهانهم على كونها ، وأن للكلب مكروبا ى مكروبته ، موتُ تلك الأرانب المحقونة فى تشنّج وارتماص ، والعُواء الجزع لتلك الكلاب التى أعملوا فى رءوسها المِثقاب

ثم أخذ بستور وأعوانه يحاولون أمراً عجبا لا يقول عاقل بامكانه ، ذلك تأنيس تلك المكروبة الفتاكة التى لا تُرى . وتعطّلوا فى محاولتهم هذه بعض التعطل ، فذهب رو Roux وتوييه Thuillier إلى مصر يدافعون مرض الكوليرا ومات توييه فى سبيل ذلك على ما علمت ، وذهب بستور إلى بعض زرائب الخنازير فى الريف يبحث عن مكروب داء كان تفشّى فيها ويطلب لها لقاحا منه ، ولم يطل هذا التعطّل طويلا . واجتنب بستور تلك المنازعات والحجاجات الوضيعة التى كانت تنتهى على الأغلب بذمه والنيل من اسمه وكرامته . وحبس نفسه مع عونَيْه والحيوانات الشلاء الخطيرة فى معملهم بشارع ألْم Ulm وفى هذه الحبسة أتوا على عدد لا حصر له من التجارب

ووضع بستور رقباء على مساعِدَيْه الشابَّين وألزمهما العمل على منضدتيهما فكنت تراهما مكبّين عليهما صباح مساء كأنهما بعض الأرقاء . وكان ينظر ما يصنعانه باحدى عينيه ، وينظر بالأخرى الباب الزجاجىّ للغرفة التى كانا يعملان فيها ، فاذا هو رأى أحدا من أصحابهما جاء يدعوهما إلى كأس بيرة فى شُرْفة مقهى قريب ، أسرع فخرج إلى الدخيل فقال له : « لا ، لا ، ليس هذا وقته . ألا ترى أنهما مشتغلان ؟ إنها تجربة فى غاية الخطر ليس فى الامكان أن يقطعاها ! »

ومضت على هذه الحال أشهر غبر حسبوا جميعا عند ختامها أنه لا سبيل إلى اضعاف هذه الجرثومة التى لا ترى ، فالمائة من الحيوانات التى يحقنونها بالمكروب بعد محاولة إضعافه كانت تموت كلها ، ومن ترى كان أقرب إلى اليأس فى ختام هذه الأشهر ؟ أظنك تقول الشيخ العجوز بستور ، وأن عونيه الشابين ، وقد ملأهما دم الشباب الحار ، كانا أعصى من أن يثنيهما هذا الخذلان . إذن لقد أخطأت الحسبان يا سيدى ، فالأمر كان على نقيض ذلك

(يتبع) أحمد زكى

فى ميدان الاجتهاد

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ٢ —

كيف يعود الاجتهاد

ولا بد من عودة إلى ذكر نصوص أخرى فيا كان للسياسة من أثر فى نصرة بعض هذه المذاهب على بعض، ولتلك المدارس وأوقافها من أثر فى القضاء على الاجتهاد فى نفوس العلماء؛ قال الشيخ أبو زرعة فى شرح جمع الجوامع : قلت مرة لشيخنا البلقيني : ما يقصر بالشيخ تقى الدين بن السبكى عن رتبة الاجتهاد وقد استكمل الآلة؟ وكيف يقلد؟ ولم أذكره هو استحياء منه لما أريد أن أرتب على ذلك، فسكت عنى، ثم قلت ما عندى أن الامتناع من ذلك إلا للوظائف التى قررت للفقهاء على المذاهب الأربعة، وأن من خرج عن ذلك واجتهد لم ينله شيء، وحرم ولاية القضاء، وامتنع الناس من استفتائه، ونسب إلى البدعة، فتبسم ووافقنى على ذلك

وقال الحافظ الذهبى فى كتابه « بيان زغل العلم والطلب » عند الكلام على علم أصول الفقه : « أصول الفقه لا حاجة لك به يا مقلد، ويا من زعم أن الاجتهاد قد انقطع وما بقى مجتهد، ولا فائدة فى أصول الفقه إلا أن يصير محصله مجتهداً، فإذا عرفه ولم يفك تقليد إمامه لم يصنع شيئاً، بل أتعب نفسه، وركب على نفسه الحجة فى مسائل، وإن كان يقرؤه لتحصيل الوظائف وليقال، فهذا من الوبال، وهو ضرب من الخيال »

وجاء فى نيل الابتهاج أن أهل الأندلس التزموا مذهب الأوزاعى حتى قدم عليهم الطبقة الأولى ممن لقى الامام مالكا، كزياد بن عبد الرحمن، والغازى بن قيس، وقرعوس ونحوهم، فنشروا مذهبه، وأخذ الأمير هشام الناس به، فالتزموه وحملوا عليه بالسيف إلا من لا يؤبه له

وجاء فى نفح الطيب أن سبب حمل ملك الأندلس الناس على هذا المذهب فى بعض الأقوال أن الامام مالكا سأل عن سيرته بعض الأندلسيين فذكروا له عنها ما أعجبه فقال نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بملككم، أو كلاماً هذا معناه، لأن سيرة بنى العباس لم تكن مرضية عنده، وقد لقى منهم ما لقى مما هو مشهور، فلما بلغ قوله ملك الأندلس مع ما علم من جلالة مالك ودينه، حمل الناس على مذهبه وترك مذهب الأوزاعى

والآن فلنشرع فى بيان الطريق إلى عود الاجتهاد، وإنه ليس هناك فرصة تنتهز لهذا أقرب من هذه الفرصة التى يتولى فيها أمر الأزهر شيخ من أنصار الاجتهاد، هو الأستاذ الكبير محمد مصطفى المراغى، ولا ننكر أنه يحيط به هذه المرة عوامل من جهات كثيرة جعلته يصير إلى أمور لم يكن يصير إليها فى المرة الأولى، وقد كان يأخذ بالاصلاح فيها غير متأثر بتلك العوامل

ومن هذه الأمور محاولة القضاء على العلوم الرياضية فى الأقسام الثانوية بالمعاهد الدينية لتحشر حشراً فى الأقسام الأولية؛ فلا يكون هناك فائدة من دراستها فيها، وكثير منها ليس فى نفس طالب القسم الأولى الاستعداد لدراسته. ويقال إن الغرض من هذا تفريغ طلاب الأقسام الثانوية لدراسة الكتب الأزهرية كما كانت تدرس قديماً فى الأزهر، ولا شك أن ستتبع هذه الخطوة خطوة أخرى فى القضاء على هذه العلوم فى الأقسام الأولية لتفريغ طلابها أيضاً لدراسة الكتب الأزهرية على تلك الطريقة التى كانت تدرس بها، لأنه لا فرق عند علماء التربية بين هذين القسمين فى حياة الطالب، وكلاهما فى حياته طور ثقافة عامة لا طور تخصيص لناحية من النواحى العلمية، فما يجرى عندنا على أحد القسمين لتلك العلة السابقة لا بد أن يجرى على القسم الآخر من أجلها أيضاً، وهنالك نعود كما كنا قبل أن نقطع فى الاصلاح هذه الأشواط، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وإنه إذا كانت العلوم الرياضية قد زاحمت حقاً العلوم الأزهرية فى الأقسام الثانوية، فطريق ذلك أن تختصر دراسة هذه العلوم فيها، لا أن يقضى عليها فيها لتحشر حشراً فى الأقسام الأولية

ومن هذه الأمور ما نحن الآن بسبيله من أمر الاجتهاد والعمل على فتح بابه، إذ يخطو الأستاذ المراغى فى ذلك خطوة لا يرضاها منه أنصار الاجتهاد، ويجعل دستور « لجنة الفتاوى »

التي ألفها من علماء المذاهب الأربعة على هذا النحو (أن تجيب الطالب على المذهب أو المذاهب التي يريد الاجابة على مقتضاها ، فاذا لم يعين المستفتي مذهبا أجابته بحكم الله المؤيد بالأدلة من غير تقييد بمذهب من المذاهب الشرعية) فلست أدرى معنى لهذا التفريق بين المستفتين ، وقصر الاجابة بحكم الله على من يريده منهم ، وإنه ليجب أن تخضع لحكم الله مذاهب الفقهاء لا أن يخضع هولها ، فلا يجاب به المستفتي إلا إذا لم يطلب الفتوى على مذهب من مذاهب الفقهاء ، فاذا طلب الفتوى عليها أفتى له بها ولو كان حكم الله المؤيد بالأدلة على خلافها ، وإنا لننزلها بهذا منزلة لم يردها لها أصحابها ، ونجعل حكمها فوق حكم الله الذي كانوا يطلبونه فيها ، وهم بشر يصيبون ويخطئون ، ولم يدع العصمة أحد منهم في اجتهاده . وقد حكى ابن عبد البر عن معن بن عيسى باسناد متصل به قال سمعت مالكا يقول : إنما أنا بشر أخطئ وأصيب ، فانظروا في رأيي ، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه ، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه

وحكى ابن القيم عن أبي حنيفة وأبي يوسف أنهما قالا : لا يحل لأحد يقول بقولنا حتى يعلم من أين قلناه . وذكر صاحب الهداية في كتابه « روضة العلماء » أنه قيل لأبي حنيفة : إذا قلت قولا وكتاب الله يخالفه ؟ قال اتركوا قولي بكتاب الله ؛ فقيل إذا كان خبر الرسول يخالفه ؟ قال اتركوا قولي بخبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : إذا كان قول الصحابي يخالفه ؟ قال : اتركوا قولي بقول الصحابي

وروى البيهقي عن الشافعي أنه قال : إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ما قلت

وذكر الشعراني في كتابه « الميزان » أن الأئمة كلهم قالوا : إذا صح الحديث فهو مذهبنا وليس لأحد قياس ولا حجة

فاذا ثبت لنا الآن حكم مؤيد بالأدلة فهو حكم الله الذي يقول به أبو حنيفة ومالك والشافعي وغيرهم ، ولو كانت أقوالهم في حياتهم على خلافه ، ولا شك أنا إذا أفتينا في ذلك على المذهب الذي يريد المستفتي الاجابة على مقتضاه نكون بذلك قد خالفنا حكم ذلك المذهب الذي جعل صاحبه حكم الله رائده ، وتبرأ من قوله إذا صح حكم الله بخلافه ؛ وقد كان من الواجب على الأقل أن يكون دستور هذه « اللجنة » ما ذكره الامام الشوكاني ، فانه بعد أن ذكر أن المقلد لا يصلح للقضاء وأنه لا يحل له أن يفتي من يسأله عن حكم الله في أمر من الأمور قال : فان قلت هل يجوز للمجتهد أن يفتي من سأله عن مذهب رجل معين وينقله له ؟ قلت يجوز ذلك بشرط أن يقول بعد نقل ذلك الرأي أو المذهب إذا كانا على غير الصواب مقالا يصرح به أو يلوح أن الحق خلاف ذلك ، فان الله أخذ على العلماء البيان للناس ، وهذا منه ، لاسيما إذا كان يعرف أن السائل سيعتقد ذلك الرأي أو المذهب المخالف للصواب

ومن المهم في ذلك أن الامام الشوكاني لم يبح للمفتي المقلد أن يفتي إلا من يسأله عن قول فلان أو رأي فلان ، ولم يبح له أن يفتي من يسأله عن الله أو حكم رسوله أو عن الحق أو عن الثابت في الشريعة أو عما يحل له أو يحرم عليه ، لأن المقلد لا يدري واحدا من هذه الأمور على التحقيق ، بل لا يعرفها إلا المجتهد ؛ وهكذا إن سأله السائل سؤالا مطلقا من غير أن يقيده بأحد الأمور المتقدمة ، فلا يحل للمقلد أن يفتيه بشيء من ذلك لأن السؤال المطلق ينصرف الى الشريعة المطهرة ، لا الى قول قائل أو رأي صاحب رأي . وهذه « اللجنة » قد ألفت من علماء المذاهب الأربعة ، فهم مقلدون لا مجتهدون ؛ وقد أبيح لهم أن يفتوا من لم يعين مذهباً في فتواه بحكم الله المؤيد بالأدلة ، من غير تقيد بمذهب من المذاهب الشرعية ولا يمكن لهم أن يفتوا بهذا إلا إذا خلعوا عن أنفسهم صفة التقليد ، وادعوا لأنفسهم صفة الاجتهاد ، ولا شك أن أكثر هؤلاء الأعضاء إن لم يكونوا كلهم لا يدعون لأنفسهم هذه الصفة وإنه ليسرنا أن يدعوها لأنفسهم . ولكنه يحول دون ذلك قبولهم أن يفتوا بحكم المذاهب الفقهية من يسألهم عنها وألا يبينوا حكم الله إلا لمن لا يعين في فتواه مذهباً من هذه المذاهب ، اللهم إلا أن يدعوا لأنفسهم الجمع بين الصفتين ، ويكون هذا من غرائب دستور « لجنتهم » ولكنا نجل إخواننا من أعضاء « اللجنة » عن هذه الدعوى ، ونعتقد أنهم سيعملون على إصلاح وجهتها ، وصرفها إما إلى الاجتهاد الخالص أو التقليد الخالص ، ليكونوا إما مجتهدين بحق وإما مقلدين

فتلك الخطوة التي خطاها الأستاذ المراغي إلى الاجتهاد خطوة ضئيلة جدا ، ولا يصح أبدا أن تكون نتيجة لذلك الجهاد الطويل

الذى قام به الداعون إلى الاصلاح وفتح باب الاجتهاد من عهد جمال الدين الأفغانى إلى الآن ، وهى خطوة من السهل أن ينظر إليها أنصار التقليد إذا آل الأمر إليهم وكأنها لم تكن ، ونحن نريد أن نفتح باب الاجتهاد فتحا صريحا يكون فى المستقبل حجة لأنصاره ، وتكأة يعتمدون عليها ، وحجة على أنصار التقليد يؤخذون بها ، والفرصة الآن سانحة بالتفاف رجال الأزهر حول الأستاذ المراغى ، واختيارهم له جميعا على أنه رجل الاصلاح وخليفة الامامين المصلحين : محمد عبده ، وجمال الدين

فلنبادر من الآن بالدعوة إلى عقد مؤتمر يجمع علماء الدين الاسلامى فى سائر البلاد الاسلامية على اختلاف مذاهبهم ، من رجال المذاهب الأربعة ، إلى رجال الشيعة الزيدية ، إلى رجال الشيعة الامامية ، إلى رجال الأباضية الباقين من فرق الخوارج ، إلى أنصار الاجتهاد الذين لا يأخذون بمذهب من هذه المذاهب ليكون فتح باب الاجتهاد فى هذا المؤتمر أمراً حاسماً لا يمكن أ يجادل فيه بعد هذا أنصار التقليد ، وينظم فيه أمر الاجته تنظيما يفتح بابه لأهله ، ويغلقه دون من ليس أهلا له ، ويم له الطريق إلى معالجة المسائل المهمة التى أدت إلى جمود الفق الاسلامى ، وعدم تمشيه مع حاجة المسلمين ، ويلهو به عما نشتغ به الآن من الخلاف فى أمور لا أهمية لها ، من قراءة سور الكهف يوم الجمعة ، والزيادة المعروفة فى الأذان ، وما إلى ذلك من الأمور التى نضيع وقتنا سدى فى الخلاف فيها

ولقد أرانى أبعدت فى الأمل بعد أن سكنت من زمن بعي إلى اليأس ، ومضيت فى سبيلى لا ألوى على أحد ؛ على أن سأمضى فى هذا السبيل الجديد بعد أن فتحت بابه على نفسى وأنا امرؤ لا يعرف الاحجام ، ولم يعود نفسه إلا الاقدام؟

عبد المتعال الصعيدى

سائح حاج

٣ - من ربوع الغرب إلى بلاد العرب

للمستشرق المجرى
الدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ بجامعة بودابست

وكنت لا أزال منزوياً فى مقدم الباخرة ، حينما أسفرت أضواء الفجر الشاحبة عن هذه البقاع الاسلامية المقدسة ، فاذا « بجدة » تسمو فى السماء اللازوردية ، بينما تتراءى أمواج البحر على أقدامها ، تشقه عشرات البواخر والزوارق فى حركة متواصلة ، يتصاعد منها صخب داو اختلطت فيه كافة لغات الشرق ، فأعادت إلى ذهنى المكدود بابل بأسواقها وشعوبها ، إلا أن المدينة الخالدة كانت تبدو فوق هذه الحياة اللاغطة ، كأنما تسمو خلوداً فوق مظاهر مدنيتنا الحديثة الزائلة وقد برزت منها مآذن فى دقة الحراب وقباب كانت شاحبة البياض قبل أن يدنسها دخان بواخر الغرب فكانت ترسو فى ظلها المراكب الشراعية حاملة طوائف المسلمين من الهند وجاوة وسومطرا والصين وشواطىء أفريقيا

واقترب الصباح فاستعد الركاب للنزول وبدأوا يستقلون الزوارق الخفيفة ، وكان النساء يرتدين تلك الملابس البيضاء ، سافرات الوجوه ، لا يجرؤ أحد على أن يتطلع اليهن بنظرة ، ومن ذا الذى فى قلبه مرض فينظر اليهن فى هذه الساعة الرهيبة نظرة اشتهاء ؟ وفى الواقع أن الجاذبية الجنسية كانت منعدمة تماماً ؟ وقد أبعد الحجاج عن خواطرهم شتى صور الحياة حتى لا يحول شىء بينهم وبين الوصول بقلوبهم إلى نور الله الواحد القهار

وكان على الشاطىء حشد من الحمالين والمطوفين ومراقبى جوازات السفر وفريق من موظفى الحكومة لجباية الضرائب وهم جميعاً يتكلمون لغات شتى . فما إن يهبط عليهم أحد الحجاج حتى يلتقطه المطوف ويقوده إلى الموظفين المختصين وبعد إتمام الاجراءات الرسمية يصحبه إلى المسكن المعد لاقامته

وجاء دورى ، فلما مثلت أمام مراقب الجوازات تطلع إلىّ وسألنى عن جنسيتى فأجبته : من بلاد المجر ... عند ذلك أظهر ارتياكا ، إذ لم يسبق له أن سمع قبل اليوم ببلادنا ؛ وأخيراً أمر إلىّ بأن مسألتى من المسائل التى يبت الأمير فيها بنفسه . وأشار إلى أحد رجال الشرطة وأمره بأن يقودنى إلى دار الأمير لأنه هو الذى بيده سلطة التصريح لى بالسفر إلى مكة . وكانت دار الأمير تبعد عن الميناء مسافة لا تقل عن نصف ساعة سيراً على الأقدام . ولبّيت الأمر فسرت مع ذلك الشرطى نتجاذب أطراف الحديث فى طرق معبدة ملساء ، غير أنه كان من سوء حظى أن أحد مسامير الخف الذى كنت أنتعله ، برز من موضعه ودخل فى قدمى فأحدث لى ألماً شديداً ظل أثره أياماً طوالا

وما إن انتهت مقابلتى للأمير ، وقد استغرقت نحو ساعة ، حتى عدت إلى الباخرة ، وكنت قد نسيت أنى تركت أمتعتى فى الزورق البخارى ، ولقد كان أسفى لضياعها عظيما ، وكم عنفت نفسى لوقوعى فى مثل هذا الاهمال الذى كانت نتيجته ضياع الأمتعة بما فيها الكتب ؛ وكدت أقطع الأمل من العثور عليها ، ولكن الله سلم ، فان النظام المحكم الذى يقوم به رجال الشرطة فى الحكومة السعودية أتاح لى أن أعثر عليها بسهولة فى إحدى قاعات الجمرك وعليها بطاقة بأسمى . وبعد ساعة قادنى المطوف إلى دار الأستاذ محمد ناصيف الذى كنت أحمل اليه كتاب توصية ، وما كاد يتلوه حتى رحب بى على طريقة العرب فى شوق وترحاب ، وغمرنى بكل صنوف الكرم التى لن أنساها ؛ وتلك لعمرى إحدى مفاخر الاسلام التى تتجلى عظمتها فى كل مناحى الحياة

والأستاذ محمد ناصيف فوق أنه من سراة الحجاز رجل مثقف ثقافة عربية ناضجة ، وتضم داره مكتبة زاخرة لا يكاد الانسان يرى مثيلها فى بعض الأقطار الأوربية أو الأسيوية ، وله رفاق يلتفون حوله كأسراب الطيور ، ليلتقطوا من حديثه الشهى الحكم البالغة والآيات البينات

***

تبعد جدة عن مكة بمسافة ٧٩ كيلو متراً ، وتشبه مبانيها الاستحكامات العسكرية ، ودورها مرتفعة ارتفاعاً شاهقاً ، وهى

مكونة من جملة أدوار ، بينما تتوج جدة قباب المساجد المقدسة ، واسمة إياها بذلك الطابع الفريد الذى يميزها دون سائر مدن العالم

ومن الغريب أن قناصل الدول والوزراء المفوضين يقيمون فى جدة دون أن يتخطوها إلى داخل الأراضى المقدسة ؟ ويستحضر رجال الهيئة السياسية طعامهم من الخارج ، حتى الماء يجلبونه من مصر ، لأن مياه جدة أجاجية غير صالحة للشرب

وتستقبل أسواق جدة عادة زبائن من كافة بقاع العالم ، ولا ينفأ تجارها يستحضرون أنواعاً من السلع لا تناسب بينها مطلقاً ، بل هى خليط من أذواق مختلفة ومشارب متباينة

وبعد أن قضيت فى ضيافة الأستاذ محمد ناصيف بضعة أيام صدرت الأوامر بالسماح لنا بالسفر إلى مكة . والواقع أن الفترة التى قضيتها فى دار ذلك الشيخ الجليل دفعتنى إلى الايمان الشديد بأن الفوارق الجنسية لا أثر لها مطلقاً فى الاسلام ، بعكس ما نشاهده فى الحضارة الأوربية من الاشادة بالقوميات والعصبيات وغيرها من المشكلات الاجتماعية التى تثيرها روح التعصب الأعمى . وصادف أن رافقنى فى السيارة إلى مكة خمسة عشر زنجياً من أهالى الصومال ، وكنا فى خلال الطريق لا ننقطع عن أن نهتف : لبيك اللهم لبيك ! وهنا يجدر بى أن أنوه للمرة الثانية بعظمة الاسلام التى تتجلى فى عدم التفرقة بين الكبير والصغير والرئيس والمرءوس ، فالكل سواسية ؛ وقد شعرت بتلك الحقيقة وأنا بصحبة هؤلاء العبيد الفقراء ، وقارنت بين ذلك وبين الفروق الشاسعة فى أوربا الموجهة نحو احتقار العناصر الضعيفة والتفرقة بين الألوان

كانت السيارة تنطلق بنا فى طريق ممهد لا عله النظر فى كل جزء من أجزائه ، طريق سلكه قبلنا ملوك وعظماء وأنبياء منذ مئات السنين ، وكانت السيارة كلما مرت بقافلة من القوافل نظر الأعراب إلى تلك الآلة الجهنمية التى تنبعث منها أصوات منفرة وروائح كريهة ، فى شىء من الحنق والغيظ . فقد أصبح النقل اليوم فى أكثر طرق الحجاز بالسيارات تمشياً مع مقتضيات الحضارة الحديثة ، مع أن البدو كانوا يربحون الشىء الكثير من نقل الحجاج بالابل ، وكانت النقود التى تدفع اليهم تبقى فى حوزتهم ، أما السيارة فان ثمنها وأثمان وقودها وقطع تغييرها تتسرب الآن إلى خارج البلاد ، فلا عجب إذا نظر إليها البدو [illegible] شىء من الحنق ونقموا على من كانوا سبباً فى إدخال تلك « ا[illegible] الجهنمية » إلى الصحراء ، وهم يقولون إن الانسان يجب [illegible] يركب فى سبيل الحج أشق الأمور ، فلا يخال نفسه ذاهبا [illegible] سياحة هادئة ، ويتذرع بوسائل الراحة والرفاهية مما يلقا[illegible] السيارة ؛ وبمقارنة الابل بالسيارة ، نجد أن للأولى قوة احـ[illegible] على الجوع والعطش ، بعكس السيارة التى تحتاج إلى تجديد [illegible] كل أربع ساعات ، والوقود كلما نفد ، فضلاً عن جهل السـ[illegible] بميكانيكيتها مما يسبب عطلها فى الطريق وترك الحجاج فى ا[illegible] إلى أن تقدم سيارة أخرى

أجل ! لقد أزعجت السيارة ذلك الهدوء الشامل فى الصحـ[illegible] وأقضت مضاجع الأعراب وحولت طمأنينتهم إلى نوع [illegible] الثورة على الحضارة الأوربية وما تقدمه اليهم من كهـ[illegible] وطيارات ولاسلكى

دخلت سيارتنا مكة فى منتصف الليل تقريباً فراعنى أن أ[illegible] الناس فى الشوارع ، يغطون فى نومهم ويحلمون بالجنة التى هم [illegible] موعودون ، لاسيما وأنهم أصبحوا على قاب قوسين منها . أ[illegible] هذا المنظر خاطرى فانبثق فى نفسى شعور خفى وأنا أستقبل [illegible] الأرض المقدسة التى وطئتها قدما الرسول وكانت خير منـ[illegible] للحق ، فهدت الناس إلى السبيل القويم

وقصدت لساعتى إلى دار مطوفى ، وهى دار رحبة عا[illegible] البنيان ، بها غرف فى الدور الأسفل أعدت لاستقبال الحج[illegible] الجدد عند وصولهم إلى مكة . وبعد أن رحب بى المطوف سأ[illegible] عما إذا كنت فى حاجة إلى طعام أو شراب فأجبته بالنفى ، كنت لا أزال غارقاً فى تيار من الأحاسيس الخفية ، معا[illegible] النفس بقرب بزوغ النهار للطواف بالكعبة المقدسة

وما إن غشيت غرفتى واستلقيت على البساط حتى أغمضـ[illegible] عينى واستولى على النعاس ، فتخيلت الرسول الكريم وقد [illegible] أمامى فى شكل نورانى ، يكاد يخطف الأبصار ، وكأنما هو ينشـ[illegible] كلمة الله فيضىء بها العالم يدعو الخلق إلى كلمة الحق ، ورأيـ[illegible] الخلفاء الأربعة يتوسطون حلقات من الناس طبقاً لقواعد الد[illegible] الحنيف ، ويسودون العالم بالحكمة والمحبة لا بالعنف والشدة

م تخيلت هارون الرشيد وهو يجول آناء الليل فى شوارع بغداد يجوس فى خلال أزقتها ودروبها ، فيكافئ الأتقياء وينزل قوبته بالمجرمين ، وانبسطت أمامى بلاد الأندلس الزاهرة وقد بادها حكم العرب ، فنشروا بين ربوعها العلم والحكمة والفلسفة الفلك والفقه حتى أصبحت هـــذه العلوم كشجرة مباركة رعها فى السماء ، وأظلت بأوراقها اليانعة الخضراء نجاد مكة لمكرمة والكعبة الشريفة ؛ ولا يظن أحد أن ما شهدته كان من بيل الرؤيا أو أضغاث أحلام ، بل هى أشباح خالدة تطوف بذهن كل مسلم صادق العقيدة متوجه إلى الله بقلب نقى طاهر

وعند انبثاق الفجر نهضنا من النوم على أصوات ملائكية ، كأنها هابطة من السماء ، تلك هى أصوات المؤذنين يدعون المؤمنين إلى صلاة الفجر التى هى خير من النوم ، فقمت مهرولا ، وبعد أن توضأت يممت شطر المسجد الحرام ومعى مطوفى ، وكنت أؤدى الصلاة المفروضة طبقاً لارشاده ، ثم بدأت أطوف بالكعبة فسرنى أن رأيت ألوفا من الحجاج ، من كافة الألوان والأجناس ، يقبلون فى لهفة على لثم الحجر الأسود ، وهو رمز تاريخى للاسلام ، كان الرسول الكريم يتبرك به ويقبله ؛ وتبعه فى ذلك الخلفاء الراشدون ، وظلت تلك العادة متبعة للآن ؛ ولقد حاولت مرارا أن أقترب منه فكان يصدنى عن بلوغه كثرة الزحام ؛ وبعد مشقة لمست بيدى سطحه الرمادى الأملس ، ولكن ما كدت ألثمه حتى رأيت سيدة من أهالى فرجانة تقع على الأرض إثر صدمات عنيفة من الخلف ، وكانت تحمل على ظهرها طفلها المسكينة التى ستصبح حاجة بعد حين ، ولقد قدمت هذه المرأة التقية إلى الحج ممتطية صهوة جواد مع بقية أفراد أسرتها ، من بلدها فى أواســـط آسيا فاستغرق سفرهم أربعة أشهر ؛ ولقد أخبرتنى هذه الحاجة أنها كانت تدخر لهذه الزيارة المقدسة من سنوات بعيدة ، وأخيراً حققت حلمها وكانت مبتهجة أشد الابتهاج

وقت بعد ذلك للسعى بين الصفا والمروة ، وهناك نالنى كثير من المشقة والعناء ، فجلست بجوار حلاق أخذ يقص خصلة من شعرى المبعثر عملا بالسنة الشريفة ، ولبثت فى انتظار مطوفى ليأخذنى إلى جبل عرفات

إن اللقاء على جبل عرفات لهو الفرض الأساسى تقريباً للحج ، فالحجاج الذين يفدون إلى جدة متفرقين ، يجتمعون كلهم فى يوم واحد ويحشرون فى صعيد واحد ، وهنا تظهر عظمة الدين الحنيف وحكمته ، فقد كان مجموع الحجاج فوق عرفات لا يقل عن خمسين الفاً ، مع أن مكة بمساحتها الشاسعة لا تستطيع أن تأوى مثل هذا العدد الوافر

وجبل عرفات من أجل جبال العالم ، يصل الماء اليه من « عين زبيدة » فى أنابيب ، وهو عمل عظيم فى ذاته ، لأنه يخفف من متاعب الحجاج للحصول على الماء . وهناك تل يطلقون عليه « جبل الرحمة » به مصلى كان النبى عليه الصلاة والسلام يصلى فيه

ولقد رأيت الحرس الوهابى يقيم على تلك البقعة ليمنع الحجاج من اقامة الصلاة بالقرب منها ، كما أنهم يحرمون على الحجاج السجود أمام العمد الحجرية المسندة اليها

والوهابيون يعارضون أشد المعارضة فى تدخين التبغ ، ولكنى رأيت أن هذه العادة تكاد تتلاشى ، وألفيت كثيراً من الناس يدخنون فى الطرق العامة حتى فى الجبل وبجوار المصلى ، كما أبطلوا عادة الخطابة التى كانت تلقى على ظهر البعير

(يتبع) عبد الكريم جرمانوس

بين الثريا والثرى

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

الحمل والجدى والسرطان : هى الأبراج المدونة بهذه الأسماء ، والمعنى هو أن الشباب لا يهتم بما يخبئ له القدر ، كما يهتم من يرصد الأفلاك والأبراج ليعرف منها ما يخبئه له القدر (الناظم)

الشباب

تذكرنى الشباب ، وقد علونا ... به فوق المجرة والنجوم
ونحن الخالدون ، وكان حقا ... خلوّ الخالدين من الهموم
سوى الحزن الذى عقباه ضِحْكٌ ... يرن صداه فى ضحك الهزيم (١)
وطئنا فوق أطلال الدرارى ... وأشرفنا على بِيدِ السديم
فلا حمل ولا جدى رقبنا ... ولا السرطان ذو البرج العظيم
وما من صولة الأقدار خفنا ... ولا لاحت لنا مثل الغيوم
بأرواح لها فى الأفق مسعى ... وتحليق على العيش البهيم
ركضنا فى السماء لكل نجم ... خُنُوّ الطير للزهر العميم
وحوّلنا وجوه الكون كأسا ... حسوناها ولم تَكُ من كروم
ولم نعبأ بما تُخْفِى الليالى ... ولم نَخْشَ المنية فى الهجوم
وأسلفنا الزمان نعيم عيش ... ولم نحذر مقاضاة الغريم
وكنا فى ائتلاف الشمل نحكى ... نظام الشهب والدر النظيم

المشيب

سكنا الأرض بعد الأفق دارا ... وأنزلنا إلى بطن الأديم
وأُفْهِمْنَا القضاء ، وما فهمنا ... وقُلْ ما شئتَ فى لغو العليم
وكُسِّرَت القوادم والخوافى ... وهيض العظم فى الجسم الكليم
صحونا للحياة ، وما تراه ... من الخُلُقِ المُقَبَّحِ والنميم
فمن حذر إلى بخل وذل ... وسوء الظن بالخل الحميم
أطَلَّ الموت من كَثَبٍ علينا ... وظِل الموت أصبح كالنديم
تُرَوِّعُنَا الصروف بكل خطب ... وخطب الموت أهون للفهيم
وضاعت جِدَّةُ الدنيا وصارت ... كأطمار على جسم العديم

(١) ضحك الهزيم : يراد به صوت الرعد

يجاربنا التذكر والتمنى ... كلا الأمرين يُفْضِى ...
وقدما قد نعمنا بالتمنى ... وأَمَّلْنَا الخلود على ...
وليت الذكر ، وهو نذير شجو ... يدوم بروقة العهد ...
سننسى أننا كنا قديماً ... على هام الثريا والـ...

عبد الرحمن شكرى

الليلة الثانية عشرة

للشاعر الحضرمى على احمد با كثير

إحدى روايات شكسبير الخالدة يترجمها إلى الـ... شعراً الشاعر الحضرمى على أحمد باكثير ، وقد تصـ... تصرفاً لا يضير بجمال الأصل ، بل يزيده أ... وضوحاً وحسنا ؛ كما نعل فى التورية اللفظيـ... قصد إليها شكسبير فى كلمتى HART (الوعل) HEART (القلب) فقد نقل المترجم الصيد مـ... إلى البحر ليتسنى له الاتيان بمثل هذه التورية فى العربية ، وإلى القارئ المشهد الأول من الر...

المشهد الأول — فى قصر الدوق

يدخل الدوق و (كريو) وأشراف آخرون ، حيث فرقة الموسيقى على اسـ...

الدوق :

هات ألحانك يا عازف إن ... تكن الألحان للحب غذ...
هاتها ! زدنىَ منها فعسى ... أن يلاقى حتفَه منها امتلا...
أعِدِ اللحن الذى غنّيتَه ! ... إنه طاب على السمع ...
كاد من رقته يفنى ! فلم ... يَدَعِ الشجو له الا ذما...
رفّ بالسمع جَنوباً عَطِراً ... سرق الروض شذاه ثم ...
قَدْكَ ! قف لحنك هذا لم يَعُدْ ... عندىَ الآن وما قبلُ ...
آه رُوحَ الحب ! ما ألطف مسـ... سراكِ فى النفس وأقواك ...
قوةٌ هائلة أنت ، فقد ... كدت تطغين على ماضى الـ...
قوة حُوّلَةٌ قُلّبة ... أبداً تبدين فى ألف ...
أين منك البحر عُظْما وقُوًى ؟ ... إنه ماء وأنتِ الكهربا...
تسقط الأنهارُ فى البحر فلا ... تعدم التأثيرَ فيه والـ...
وهمومُ النفس مهما عظُمت ... وسمت أوجًا ، وشطّت فى ...
دون أمواجِكِ فى ثانيةٍ ... تتلاشى كالتماع من ضـ...

ذا الغالى رخيصٌ، وإذا الـ أوج قفرٌ، وإذا الأسْرعياء(١)

كريو:

لاى! هـل لك فى صيـ ـد البال ؟ فالجو حالى(٢)

وق:

ويلك ! هـل أنا إلاّ فى الصيد! والبال بالى !
أعـزُّ شىء بجسمى قـدراً. وأنفَسُ غالِ
أوّلَ ما زلزلتْـنى بطَرْفها القتّـال
(أوليڤيا) ، وهدتنى للحبّ بعـد الضلال
هناك صُـيِّرتُ بالآ مضرّساً بالنكال
مطارَدًا طـول أيّا مه وطول الليـالى !
اكتنفتْهُ شِـباكٌ من كل وجه وحال
خيوطها من همومى ونسجها من خيالى ! !

« يدخل ڤالنتين »

— هات عنها ! ماذا وراءك ؟

— ما يُرْ ضيك مولاى ! لو رُزِقتُ القبولا
سلّمتنى عنها الوصيفةُ هذا الـ ردَّ منها ـ وما أراه جميلا ـ :
لن يرى الكونُ نفسُه وجهها السّا فرَ سبعاً كسبع يوسف طولا !
نذرَت أن تبقى كراهبة الدّيْـ ـر عليها نقابُها مسـدولا
كل يوم تطوف بالبيت بالدمـ ـع يبلّ الثّرى ويُخفى المسيلا
كل هذا من أجل موت أخٍ كا ن إليها المحبّب المأمولا
رُزِئَتْه فأقسـمتْ لَتُديمَنَّ (م) أساها عليـه دهراً طويلا

الدوق:

زهِ ! ضمّتْ إذاً ـ إلهى لك الحمـ ـدُ ـ إلى حسنها الشعورَ النبيلا !
أكان هـذا وفاءها لأخيها كيف بالله لو أحبّت خليلا !
لوْ إليها (كوبيد) سدّد يوماً سهمه المُذْهَب اللطيف القتولا !
فغدا فى فؤادها كلُّ همٍّ شاغلٍ ـ دونه صريعاً قتيلا
واعتلى عرشَ قلبها مَلِكٌ فرْ دٌ كفرعونِ مصرَ دانَ النيلا !
سِرْ أمامى إلى أريكٍ من الزّهـ ـر أهدهِدْ بها الفؤادَ قليلا !
حيث تُلْقى خواطرُ الحب فى أكـ ـنافها مرتعاً خصيباً ظليلا ! !

علي أحمد باكثير

(١) الأسر : القوة (٢) البال : نوع معروف من الحيتان والبال أيضا القلب

الشاعر

للسيد رياض معلوف

من كتابه « الأوتار المتقطعة » الذى صدر حديثا

شاعر فى شـفتيه كلمات مُـنْزَلَهْ !
ضاقت الأرض عليه لطموحهْ
وخيالهْ
جـذوة فى مقلتيه رُوحـه المشتعلهْ
قطرة من محجر الله ورُوحِـه
وجمالهْ

شاعر إن شـدا وردّدا شعرا فنياط القلوب من أوتارهْ
ما ابتسام الربيع ألطف ثغرا منـه حتى لو كان فى نوّارهْ
ودموع الصباح أطهر دمعا منه فوق الخدود من أزهارهْ
أين شذو الهزار فى الروض منه لا يجاريه روضـه بهزارهْ
هو (مُوسِّيهُ) هل سمعت نواحا فى الليالى أرق من أشـعارهْ
وهو (دَنْتِى) هلا رأيت جحيما بكتاب حروفُه جَمْرُ نارهْ
والمعرى، رغم العمى(ضوء سقط) يهتـدى التائهون من أنوارهْ

رياض معلوف

يـد الأيام

للسيد الياس قنصل

لو كانت الأيام تقضى مرةً للمرء ما يصبو إليـه ، معجبا
خلعتُ عن نفسى ثيابَ رزانتى ورجعتُ مسروراً إلى عهد الصّبى
هى حقبةَ فى العمر يحرس صفوَها ظلٌّ من الطهر الصميم ظليلُ
وكأنها لخلوّها من كلِّ ما يثْدُ العواطفَ للكمال سبيلُ
يسخو الزمان بما لديه على الذى رضىَ الوجودُ بأن يريه ضياءهُ
لكنْ حُمَّاه ترافق جودَه سراً ، وتتلف ما يفوق عطاءهُ

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٣٠ – تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

الناحية الإيجابية من مذهب نيتشه

السوبرمان

أو الانسان الأعلى

للأستاذ خليل هنداوي

لنفترض أن هذه القوى يتفاعل بعضها ببعض تبعاً لقانون المصادفة والتدابير المتعاقبة، وأن الترتيب اللاحق مؤثر في الترتيب السابق، فما عسى يقوم في أزلية الزمان؟ أرانا إذ ذاك مضطرين إلى القول بأن هـذه القوى لم تبلغ بعد نقطة التوازن ولن تبلغها أبداً، إذ لو كان هـذا الترتيب في استطاعته أن يظهر يوما ما، لاستطاع إذاً أن يظهر لتطاول الزمن الغابر. والعالم – عند ذلك – يصبح جامداً ساكناً لا يتحرك، لأن من المحال أن تضل هـذه القوى عن «نقطة التوازن والاستواء» بعد أن أدركتها ووصلت اليها. فنحن إذاً أمام القول بأن شحنة من القوى الثابتة المعينة تولد – في هـذه الآماد – تدابير لا تنبتر وحالات لا تتناهى. وبما أن الزمان لا نهاية له، وبما أن هذه الشحنة من القوى هي معينة محدودة، فسوف تأتي لحظة – مهما كانت هذه القوى عظيمة ومهما كانت آثارها الناشئة عنها كثيرة – نرى فيها هذه اللعبة الطبيعية غير العاقلة تولد «تدبيراً» أو تهتدي إلى حالة تستقر عندها وتقف عليها

ولكن هذه الحالة أو هذا الانتقال سيجر وراءه سـ[...] تامة من الحالات المتسببة عنه، من حيث أن الحركة العالمية ذات الأشياء وتمشي باستمرار على دائرة واسعة. كل حياة [...] هي جزء من هذا الدور الكلي. وكل فرد قد عاش الحياة [...] مرات لا تحصى وسيعيشها إلى الأبد. كل الحالات التي [...] للوجود أن يبلغها قد بلغها في الماضي مرات متعددة. قد [...] مرة، ومرات عديدة سيكون وسيعود. وكل القوى السا[...] متوزعة اليوم توزعها بالأمس

أيها الانسان! إن الحياة كلها كرملة ترش دائماً وتجمع دا[...] وكل خليقة من هذه الخلائق لا تنفصل عن الأخرى إلا بـ[...] تلك اللحظة الطويلة الضرورية لها حتى تعود تلك الضرور[...] التي كانت سبب ولادتها، فتعود إلى الظهور. والولادة حالة مـ[...] في «الدور العالمي» وعند ذلك ستجد كل شقاء وكل غبطة وكل صديق وكل عدو، وكل أمل وكل ضلال، وكل غر[...] وكل شعاعة من الشمس، وكل نظام الأشياء، وهذا الد[...] الذي انت فيه مثله مثل الحبة سينبثق من جديد

في كل دور من أدوار الوجود الانساني، لكل إنسان – على الأغلب – ساعة تظهر فيها الفكرة القوية القائلة «بالرجعة الدائمة» لسائر الأشياء. وهذه الساعة التي تبلغها الانسانية هـ[...] ساعة «الهاجرة»

وما إن بدا لنيتشه هذا المذهب حتى سرى في روحه وغمر فكره، وغلب على قلبه؛ وقد عزم على أن يغامر بعشر أعوام من عمره، يدرس التاريخ الطبيعي لكي يستطيع أن يبني مذهبه هذا على قواعد علمية ثابتة، ولكنه لاذ بالصمت وأدرك خيبته في زعمه هذا. ولكن فكرة الرجعة الدائمة ظلت تتجاذب فكره، وظل يدور حولها. وهذه الفكرة كانت احدى هبات «زرادشت» الكبرى إلى رجاله

وقد وضح جلياً تأثير هذه الغمة التي غشيت نيتشه يوم أصبح يؤمن بهذه الرجعة الدائمة. ولن نستطيع أن نتخيل حلا لمسألة الوجود أظلم وأبهم من هذا الحل، فالوجود لا يعني شيئاً، إنه وليد مقادير عمياء، ينتج من وراء مصادفاته الخالية من الشعور قوى يمتزج بعضها ببعض، فيخلق بعض النماذج على

إني بلغتُ إلى الشباب مضيّعا ... من حيث لا أدري جمالَ هنائي
في كل يومٍ كان يهلك بعضُ ما ... زخرتْ به نفسي من الآراء
فإذا التفتُّ إلى الوراء رأيتني ... أشلاء ضمّتها الليالي الماضيَه
ووجدتُ حولي ما يماثل خربةً ... تمشي بلاقعها الأماني الذاويَه
والحق أني قد غُبنتُ ولم أفزْ ... إلا بساعات من الآلام
ما خبرتي إلا شعور طهارةٍ ... خنقتْه في صدري يدُ الأيام

(عاصمة الأرجنتين) الياس قنصل

سب المصادفات . أما الحركة الشاملة للوجود فهي لا تقود جزءاً ، ولا قسما . وإنما هي تدور حول نفسها بدون انقطاع في نفس دائرة ، وهذه الحياة التي نحياها سنكررها إلى مالا نهاية ، دون أن يكون هنالك رجاء في التغير . وكل لحظة مشحونة بالكآبة والشقاء والسأم سنحياها مرات لا تحصى . فهل في الامكان أن نتخيل ما يصنع هـذا الافتراض في جماعات المنحطين والمرضى المتشائمين ، وفي كل من ترجح كفة شقائهم على كفة فرحهم ؟ إن عند أغلب الناس — كما يبدو — فكرة تشبه فكرة العودة الدائمة ؛ تظل وإن لم تكن مبنية على مبدأ معين — غير مؤذية ولا ضارة ، لأنها تبقى فكرة مجردة خارجة عن الادراك ، لأن مخيلتنا غير قادرة على اخراج هذه الفكرة إلى حيز الحقيقة ، لأن المعارف التي يتلقاها عقلنا لا تعين إلا قليلا من قوتنا الحاسة . لكن نيتشه هو الذي يهب الحياة تعاليمه ، وهو يتغلغل في كل وجوده

وقد يشاهد أن الرجعة الدائمة أخـذت تظهر في بعض اللحظات ككابوس شيطاني يملأ قلبك رعباً ويقف دقات قلبك ، يقسونه على المنحطين والأشقياء بدأت الآن ترتدي غير رداء ، وقد وضح ما يريد في صيحته هذه « ليموتوا سريعاً . ليقتلوا أنفسهم ، أو ليقتلوا ، هؤلاء المنحطون . . . . . ! ! من قبل أن يتمكنوا من قياس أعماق هاوية الآلام التي غرقوا فيها ، وقبل أن يفقهوا معنى القدر الوحشي الذي يقضي عليهم بأن يجرجروا صلبانهم بدون أمل في نجاة ، وإذ ذاك تفهم إذا كانت الانسانية في استطاعتها أن تتحمل هذا المذهب دون أن تزل سريعاً في هاوية اليأس والخوف ، أو أن تعتبر فكرة العودة الدائمة كابتلاء يهوى به من لا تصلح جيوبهم

لابد من قوة نفسية خارقة لاحتمال فكرة العودة الدائمة وهذا هو صاحب هذه القوة النفسية يستطيع أن يقول « إذا لم يكن للحياة معنى بذاتها فأنا أعطيها معنى . إنما أنا قطعة من الطبيعة تريد أن تكون دائماً جديدة ، تسمو بدون سأم ولا نصب إلى ما لا نهاية في الحلقة ذاتها . إنني سأرتفع وأصعد حتى يتسنى لي أن أتأمل كفنان روعة الحياة الخصبة التي لا تُفهم . وسأهتز طرباً إلى لعبة هـذه القوى التي أنتجت وحصلت كثيراً من الآثار اللطيفة الرائعة . والتي ولدت الانسان وستلد السوبرمان . سأغني بكل قلبي وإيماني من القوة العمياء أن تبدع شيئاً لامعاً ساطعاً يسمو على الانسان . وسأحيا يراودني هذا الأمل ، وسأجعل وجودي كله وعاء لهذه الفكرة . أريد أن الدائرة التي تتحرك فيها الحياة تحور إكليلا باهراً زاهراً . سأقضي حياتي فرحاً مرحاً ، راجياً أن يؤول دوري الذي أمثله إلى نتيجة حسنة . وإذا خسرتُ — في هذا الدور — فلي رجاء كبير فيمن يليني ويأتي بعدي . وهكذا لا يتلاشى من الوجود ضياء الحياة ولا يكفهر . وهكذا الانسان المأخوذ بهذه الفكرة التي تزيده نشوة ، يصبح في حالة يبصر فيها هزائمه وانكساراته كفدية يسيرة لأفراحه وانتصاراته . يجدها كالمنخس الذي يدفعه دائماً إلى التعالي والتسامي ، إلى تفوقه على نفسه . وهكذا إذا رجع إلى محاسبة نفسه يرى أن مقدار سروره كان أرجح من مقدار ألمه وإذ ذاك يرضى بكل حمية وشوق فكرة الحياة الخالدة ، وفكرة القبول بالحياة التي يكررها إلى الأبد

ولهذه النتيجة تسامى أولئك الرجال السامون الذين جمعهم زرادشت في مغارته . فحين عرض عليهم تعاليمه الجديدة وفضائله الجديدة ، وفتح عيونهم على جمال الحياة وروعة الحياة ، وحين شفاهم من تشاؤمهم ورفع نفوسهم التي أوشكت أن تنحني تحت أثقال الكآبة والسآمة ، جمعهم تحت جنـح الظلام أمام المغارة تحت قبة السماء

« جلسوا صامتين متهيبين . كلهم في سن الكهولة ولكن قلوبهم تفيض قوة وحياة ، وكل منهم راض بنفسه عن نفسه إذ غدا شيئاً صالحاً على الأرض ، وكان سكون الليل المفعم بالأسرار يناجي قلوبهم . عند ذلك تمت الأعجوبة الأعاجيب . فالانسان الأكثر قبحاً جلس ينفخ للمرة الأخيرة ، وحين دعاه داعي الكلام قال : هذا السؤال الذي خرج من فمه طاهراً نقياً عميقاً ، وجميع من كانوا حوله يصغون إليه أحسوا أن قلوبهم تهتز وتخفق طرباً

قال : « هأنا — لأول مرة — غدوت راضياً عن حياتي جبلة الحياة على الأرض . ان يوماً واحداً ، ان عيداً واحداً مع زرادشت علماني بأن أحب الأرض

سألت الموت : هل — هنالك — الحياة ؟

ألا لتأت مرة أخرى

أصحابى ! ألا تريدون أن تقولوا للموت مثلى : هل هنالك الحياة ؟ وفى سبيل محبة زرادشت لتكن مرة أخرى »

أفلح إذ ذاك زرادشت . فان الرجل الأكثر قبحاً ، والمسخ الذى قتل بعضه الآلــه ، الذى يتمثل فيه كل قبح وشر وسوء فى الانسانية قد تلق الآن جمال الحياة ، وأدرك أن الألم هو فدية لا مندوحة منها للسعادة ، فقال : — بلى للوجود . وبينما كان النبي محاطاً بأتباعه ، يتذوق خمرة هذا النصر كان يتهادى ناقوس قديم ذو رنين حاد يمان ببطء — بمجيء نصف الليل — أن نصف الليل هو الساعة الواحدة التى يلتقى فيها النهار الذى انتهى بالنهار الذى سيبتدئ ، حيث يصافح الموت الحياة . نصف الليل هو ساعة الصمت الأكبر ، حيث النفس المتأملة تتفتح لها التأملات والأسرار الخفية . وبينا كان الناقوس القديم ، الرسول الذى يقرع لأفراح الانسانية وأوجاعها ، يعلن بدقاته الاثنتى عشرة عن تلك اللحظة التى يجوز فيها الموت الى الحياة ؛ نرى زرادشت يترك رجاله السامين يلحنون الفكرة الكبرى للرجمة الدائمة غارقة فى الألفاز كأنها مزمور رمزى معطر بالنشوة الدينية

١ : ألا احترس أيها الانسان !

٢ : ماذا يقول منتصف الليل العميق ؟

٣ : كنتُ أنام ، كنت أنام

٤ : هأنا قد تيقظت من حلم عميق

٥ : الوجود هو عميق

٦ : أعمق مما لم يفكر فيه النهار

٧ : وعميق شقاؤه

٨ : وفرحه أعمق من ألمه

٩ : الشقاء يقول لك : اهلك

١٠ : ولكن كل فرح يبتغى الخلود

١١ : يبتغى الخلود ، الخلود العميق

« انتهى البحث فى فلسفة نيتشه (*) »

« خليل هنداوى »

(*) يطبع قريبا كتاب « فلسفة نيتشه » وهو أول كتاب فى العربية يبحث فلسفة هــذا الفيلسوف الصارم ، وسيكون مذيلا ببعض آثار نيتشه الأدبية

القصص

أساة من اسخيلوس

٢ - أجاممنـــون

للأستاذ دريني خشبه

« آرجوس ! »

« وطني العزيز ! »

« أربابي ! . . . »

« لكم في عنقي دين أبدي من الشكر ، وفي فمي لسان رطب لا يفتر عن ثناء ؛ فلولاكم ما نسمت هذا العبق الحلو الذي يتأرج به هواء هذا البلد ، ولا ظفرت باليوم الخالدة ، دولة بريام ، ودرة هذا الزمان ! أجل ! فلقد بده الآلهة ما ألم بشرفنا القومي ، وحاق بعزتنا الوطنية ، فقضت أن تكون طروادة نهباً مقسماً لا يحل إلا للهيلانيين ، فلا تزال ألسن النيران تعلن في الخافقين حكمة السماء من أبراجها الشاهقة ، وصياصيها السامقة ، وقصورها الشماء ... وغداً تصبح صعيداً جرزاً وطللا بالياً ... من أجل من ؟ من أجل امرأة !

أما أنتم يا رعاياي فأشكر لكم إخلاصكم ووفاءكم وتعلقكم بهذا العرش الذي يستمد قوته منكم وما يزال يرتقي بتأييدكم ... وسننظر فيما تم إذ نحن نازحون عن الديار فنجزي كلا بما عمل ، ولا نغضي عن إساءة المسيء ، ولا نتسامح في تألب المتألبين ...

يا آلهة النصر ... لك الحمد ولك الثناء ... لا زلت تباركين آرجوس ، ولا برحت أياديك تنتشر هذا الوطن »

— ١٦ —

وما يكاد الملك ينتهي من كلمته حتى تدخل الملكة ... الملكة كليتمنسترا ... أو الحية الرقطاء ! ... التي لا تفتأ تتحدث إلى الملأ عن حبها للملك ، وعن الآلام المبرحة التي عصفت بقلبها أثناء غيابه ، والوحشة التي ظلت تخيم على الـ (بلبيوديه) العتيق الشاهق طيلة هذه السنين العشر ... وتتحدث عن الاشاعات الحزنة التي تناقلتها الألسن عن الملك المفدى في ميدان اليوم ... ثم .. ترى ألا بد من كلمة عن هذا الأمير الصغير النفي ... أورست ... الذي هو « ثمرة حبنا وواسطة عقدنا ، والنور الالهي الذي يغمر قلبينا ويؤلف بين روحينا .. إنه ينشأ ويشب ويترعرع في كنف صديقنا وحليفنا ، وحافظ ودنا ، الأمير ستروفيوس ، صاحب فوسيز ، الذي تفضل لحمايتي في غيبتك ، وذاد عن قصرك المنيف تكالب الأرجيف[1] ... ... ولقد كنت أتقلب على إبر الشوك حنيناً إليك ، وشوقاً إلى لقائك ... وكنت أبداً حزينة كاسفة لأن النيران لم تشتعل مؤذنة بأوبتك ... ولكن ... ها أنت تعود فتعيد الآمال إلى القلوب الواجفة ، والايمان إلى النفوس التي نكأها اليأس ، والرجاء إلى كل من عزه الرجاء ... ... »

ثم تختل الملك وتخدعه ، عسى أن تنطلي عليه تدبيراتها السود فيلج معها في القصر ، وتنفذ فيه الفعلة الرائعة الرهيبة التي رسمتها له ، والتي آلت إلا أن تكون بيدها . . . وبسلاح عاشقها الآثم إيجستوس ...

« ... والآن هلم يا مليكي ... يا رجاء آرجوس وفخر هيلاس كلها . . . هلم فترجل من تلك العربة الفخمة الفاخرة ذات الأوشية ، وطأ أرض القصر المتيد بقدميك الراسختين ، كما وطأت بها عز طروادة ومنعتها . »

وتكون الملكة قد أعدت بساطاً كبيراً من الخز الأحمر الأرجواني ليمشي عليه الملك ، فتأمر قيانها وجواريها أن يبسطنه على المرمر الناصع ... « ليخطر عليه مليكي ، وليتم بهاء اليوم

(١) أهالي أرجوليس

... وأبهة النصر ... بما عاد رب البلاد ظافراً ! »

— ١٧ —

وتصدع الجوارى فيبسطنه

.ولـكن أجاممنون ، الذى كان الوسواس يملأ قلبه ، والشك يذوب فى كل قطرة من دمه ، وسرطان الهم ينهش نفسه الحائرة ... ظل فى عربته متردداً ...

ذلك أن كاسـندرا ، تلك النبية الجالسة بجانبه ، ابنة بريام التى جلبها معه لتكون خليلة له فى ا — (بلبپوديه) — كانت قد تحدثت الى الملك ، فكشفت له أستار الغيب ، وتنبأت عما ينتظره من دم ... وغدر ... وما ينتظرها هى أيضاً من مثل هذا المصير الأحمر ... والقدر المخبوء ...

وكانت أصداء النبوءة التى ملأت بها كاسندرا رَوْع الملك ، ما تزال تتجاوب أصداؤها فى قلبه ، وتهتف به بألف لسان أن ... يحترس ! فقال للملكة :

« إيه يا ابنة ليداء ، وحارسة عرشى وحامية صولجانى ! لقد استطالت تهنئاتك بقدر ما استطال نأيى وشط نزوحى عن آرجوس ! بيد أننى كنت أوثر الثناء الموشى من غيرك ، وكنت أوثر ألا أرى فيـك تلك الغادة اللعوب من غادات الشرق السحرى ... تتحوى وتتلوى ... وتلق رجلها بكل مصنوع ومجلوب ! ثم ماهذا البساط الأحمر الحريرى ؟ هل أصبح أجاممنون إلـهاً ؟ إن البسط الحمراء لا يخطر عليها غير الآلهة ... فهى حق مقدس لهم ... أما بنو الموتى ، فليس أجلب للذعر ، وأدنى للرهبة ، من أن يتطاولوا على حقوق الأولمب ، ويؤثروا أنفسهم عما ينبغى أن يبقى للسماء ! ... والمجد ... بعد كل ذلك ... لا يعوزه أن يسير على مهاد من المخمل ، أو أن يهز أعطافه فى حلل الدمقس ... إيه ! الخلود والمجد لمن تنتهى حياته الحافلة فى أمان وسلام ! »

— « ماذا أيها الملك ؟ هلم خدثنى ... واجل لى خافيتك ؛ ماذا تريد أن تقول ؟ »

— « سأجلو لك كل شىء حتى لا يكون خفاء بيننا : »

— « قد تكون نذرت هذا فى ملمة نزلت بك ! »

— « بديهة حاضرة يا ابنة ليذا ؟ »

— « وما كان من أمر بريام ؟ وبم استحق هذه النهاية إذن ؟ »

— « أغلب ظنى أنه فرش طريقه بالخز والديباج . . . ؟ خفقت عليه الآلهة ؟ »

— « أنت تأبه كثيراً لما عسى أن يتقول الغوغاء ! »

— « وأى شىء هو أعنف من تقولات الغوغاء ؟ »

— « من لا حسود له ، لا معجبٌ به ! »

— « آفة المرأة أنها أبداً تثير الشغب والاضطراب ! »

— « حاشاى ! بيد أنه من العظمة للمرأة أن تخضع فاتحاً عظيما (كفاتح طروادة !) »

— « أفنحن إذن فى معركة حتى يشتد حرصك على الغلبة فيها ؟ »

— « هلم . . ترجل . . دعنى أنتصر على قاهر طروادة ! »

— « إذا كان لا بد من هذا ، فرى أحداً ينزع حذائى فقد يطلع أحد الآلهة من ذروة الأولمب فيرى إلى أطأ الخز الأحمر الأرجوانى بهما ، فينقم على ويثور بى . . . كم أضطرب حين أخطو خطوةً واحدة على هذا الديباج ؟ . . . »

(تتقدم جارية من جوارى الملكة فتنزع حذاءه)

— « إيه ... قُضى الأمر ... ولـكنى أرجوك أن تتقبلى هذه الغريبة النازحة فى حنان وفى حب ... فما تزال السموات يتبسمن كلما اطلعن فشهدننا نتلطف فى استعمال جبروتنا ! .. لقد منحنى الجيش إياها من سبى اليوم ... (يترجّل وتظل كاسـندرا بمكانها من العربة) ... فأما وقد ظفرت بطلبتك فانى أمشى على هذا الأرجوان إلى قاعة العرش »

وتتملقه الملكة بكلمات فيدخل إلى قاعة العرش ، وتتضرع كليتمنسترا إلى سيد الأولمب أن يحرس ما دبرت ، وأن يتولى الفيـلة التى أعدت للملك ببركاته ! !

— ١٨ —

ويترنم الخورس بأنشودة شفافة ، ينعكس فى صفائها غدر المرأة وشدة مكرها ...

ثم تحضر الملكة فتشير إلى كاسندرا قائلة : « ... هلمى فادخلى أنت أيضاً يا كاسندرا ... أدخلى ... ما دامت السموات قد ساقتك إلى هنا لتتقاسم أمواه هذا المطهر القربانى ... هلمى ... انزلى من هـذه العربة المطهمة التى يبدو أنها نفخت أوداجك بريح الـكبرياء ! ... انزلى ولا يؤلمك ما أنت فيه من أسر وذلة ونفى ... فما أنت بخير من ابن ألـكمين [1] العظيم الذى قضى

---

(١) هى طبعاً تريد هرقل وما قاسى من ذلك المنفى عند الملك يوريثيوز ملك أرجوس

حاً طويلاً فى ربقة الأسار ... عند ملك جبار ... هنا ... نفس هذا القصر ! إنه لشرف أى شرف أن تخدمى فى بيلوبيديه) ، ما دمت قد استسلمت لنزوة أحلامك حتى ت بها حدودك يا فتاة ! إنزلى ... فان لك أن تشمخى بأنفك ، تيهى على أندادك ، لأنك ستكونين جارية من جوارى ملكة جوس ! »

رئيس المنشدين : « لقد قالت وقد سمعتِ ! وكلامها بين ... ! مالك مكدودة هكذا ؟ ... قد تفكرين فى الطاعة ... لكن ... قد ينجلى اشمئزازك بعد حين ! »

كليتمنسترا — « رضخت أو لم ترضخ ... لابد من تصغى لى ! »

رئيس الخورس — « أطيعى يا فتاة ... قد يكون هذا مالحك ... إنزلى ! »

كليتمنسترا — « إن النيران المتأججة تنتظر بفارغ الصبر تلتهم فرائس الذبيحة ، وقد نضب معين الرحمة ، وغاض ماء لحنان ، وليس هناك وقت نضحى به من أجل بكمك أيها الفتاة ، ذا لم تستطيعى التكلم بلساننا فلتؤد بيداك ما تريدين أن تجيبى ... تكلمى ! »

ولكن كاسندرا ما تزداد إلا صمتاً ، وما تزداد إلا سكوناً ، يقول رئيس الخورس :

— « يبدو أنها فى حاجة إلى ترجمان ... ... »

وتتميز الملكة من الغيظ ، فتحدج الفتاة بعينين تقدحان لشرر ... وتنطلق داخل القصر ...

— ١٩ —

ويرثى الخورس للفتاة المنكودة ، ويروعه هذا الأسى الذى يتشح به وجهها ، وتلك الكآبة التى تجلل جبينها ، فيعطف عليها ، ويدعوها لتنزل من العربة ... فاسمع إذن إلى هذا الحديث الشجى:

— « إنزلى ... أصيخى للقضاء ، وسلمى للقدر ... إنزلى ! »

— « آى ... آى ... أوه ... أبوللو ... أبوللو ! »

— « فيم هتافك الباكى بأبوللو ... ؟ »

— « آى ... أبوللو .. أبوللو ... آى ، آى ، أوه أبوللو ... ؟ »

— « ما تنفكين تهتفين بالاله الذى أصم أذنيه عنك ؟ »

— « آه يا أبوللو يا إلهى ! أيها البانى المظلم والمخرب المظلم ! بنيت طروادة ... وحطمتنى ! وها هى يدك تمتد فى غير رفق مرة أخرى فتعبث بى ! »

— « اسمعوا يا رفاق ! إنها تتنبأ عما يخبىء لها القضاء ... كأن فيها جذوة من السماء (١) ! »

— « أبوللو ... أبوللو ... يا بانى طروادة ... يا هادم بنيانى .. ماذا هنا ؟ أى سماء ؟ فيم جئت بى هنا ؟ »

— « هذا قصر الاتريديه (٢) إن لم تكونى تعرفينه بعد ! »

— « آه ! ... حاشا ! بل هو كهف رهيب رائع ! ممقوت من السماء ! ملطخ بدماء الأثم ، مضرج بأرواح الشهداء تجثم الجريمة فى كل ركن من أرجائه ! »

— يا للآلهة ! إنها تشم رائحة الدماء ... وكأنها قريبة منها بل هى بين ناظريها لا شك ! »

— « أجل ! ... أجل ... هناك . هناك . هناك . وها كم برهان قاطع ... تشمموا معى ... ولكن ... لا ... إنى أرى ... إنى أنظر ... الأطفال الأطهار الذين ذبحوا ... هاهم يتصايحون بقاتلهم وها هى لحومهم ... الشواء ! ... مسكين أبوهم ! لقد أكل ...! لقد قرت لحومهم فى بطنه ! »

— « أيتها الفتاة ! لقد طبقت شهرتك الآفاق كنبية تكشف الغيب ما كان منه وما يكون ! ولكنك هنا...ولا حاجة لهذا المكان المرعب بأنبياء !

— « آه ! ... وما ذاك أيضاً ؟ ويلى ! جريمة جديدة وحزن جديد ! ثمرة مرة من ثمرات الطغيان ! إنها تدبر الآن ... تحت سقفك أيها القصر الهائل ! طاعون ! طاعون مهلك لا سبيل الى الفرار منه ! من عمل البغضاء العمياء للمحبة المبصرة ! الغوث ! ويلاه لاغوث ! »

— « لا أكاد أستبين هذه النبوءة ! لقد كانت الأولى جلية واضحة ! وكل مدينتنا ما تزال تتحدث حديث الوليمة المجرمة ! »

— « يا شقية ! زوجك يا شقية ! كيف تجسرين ؟ هاهى ! إنها تمد يدها الأثيمة ! إن الضربة الهائلة تتلو الضربة الهائلة ! ... »

— « ولم أفهم بعد ! إن نبيتنا تلغز ... إن نبوءاتها طلسمات»

(١) النار السماوية هى القضاء والقدر واستطاعة كشف الغيب فى الميثولوجية اليونانية (٢) أسرة أجا ممنون

— « يا للشبح ! ويلاه ! ما عساه أن يكون ؟ شراك من الموت ... ومن الجحيم ! بل هو شرك الغرفة السوداء ... غرفة الشريك المجرم ! هلمي يا غربان الويل ... يا أبابيل الاثم ! هوّمي فوق هذا القصر ... أو إن اسطعت فارجميها ... أرجميها ... ! »

— « أية أبابيل تستنزلين رجومها على القصر ؟ إن دعاءك يذهلني ! إن قطرات الموت المسمومة تتسرب إلى شغاف قلبي ؛ حينما تتسرب لُمعَ الحياة من جراح القتلى ... ! أوه ... ما أسرع الحزن انحداراً في القلوب ؟ ... »

— « ماذا أرى ؟ آه ... أسرعوا ... أسرعوا فاحجزوا البقرة واحموا العجل ! أنظروا ! أنظروا ؟ إنها تأخذ بتلابيبه ... وتخوض في لبته بسلاحها ... آه ... لقد سقط المسكين يتشحط في دمه الغزير ... ! »

— « لقد كنت أنخر عما أقدر عليه من كشف للغيب ، أحدس الآن أن هذا الهذيان لا يدل على خير !! يالَلآلهة ؟ أبداً لم يكن الترجيم جلياً بيِّناً ! وأبداً لم يضف الأنبياء أمارة حبور على هذا الكون ! إن الأشجان بضاعتهم دائماً ، وإن اللغو من القول آلتهم إلى أذهان الناس ، وهم لا يضربون إلا على أوتار الذعر ليصلوا إلى غور قلوبنا ! »

— « ويلي ! بالحظى العاثر ! لقد أترعْت الكأس عما رويت من قصتي السادرة ! لم جئت بي إلى هذا القصر معك أيها التعس ؟ ألأموت معك ؟ وماذا أيضاً ؟ لأموت ؟ لأموت ؟ »

— « ما تزدادين إلا هذياناً وهذراً !؟ وما بك إلا مس ؟ وإنا لا ندري : هل حملك إله إلى هذا القصر لتتغنى حظك العاثر ، كما تغنت أختك البلبلة [1] الحزينة من قبل ... ... »

— « ياويح لي ! ومن لي بنصيب مثل نصيبها ! الحورية الجميلة التي منحتها الآلهة ريشاً وأجنحة ؟ لقد سلمت وودعت وفازت بحياة طيبة ... ... أما أنا ... فقريباً أشق بنصل حاد فأكون شطرين ! ... »

— « ياعجباً ! أنى لك هذا ؟ ... من بذر فيك هذه البذرة السوداء ؟ أنى لك تلك الأغنية الكئيبة ، وهذا اللحن الحزين ؟ من أين تتنزل عليك موسيقاك الباكية ؟ من أوحى اليك بهذا الوسواس الخبيث ؟ ... »

« البقية في العدد القادم » دريني خشبة

(١) أسطورة البلبل الحزين تقول بأن احدى الأميرات ألمّت بها ملمة فما برحت تشجى وتحزن حتى رثت لها الآلهة وحولتها إلى بلبل فرد ...

القفـــاز

بقلم حسين شوقي

(س) عنده الصفات التي تكفل عادة للمرء النجاح في ميـ الحياة : الذكاء والشباب وحسن المنظر .. ولكنه خجـ لسوء الحظ إلى حد بعيد ، وقد أفسد عليه خجله أموراً كـ وعاق مستقبله ، إذ أن س لا يعمل غير عمل متواضع ، في مجاري متواضع ..

ماذا يفعل (س) في خجله ؟ ماذا ؟ لماذا عالج هؤلاء الأغـ الحكماء الفهامة بوضع قطع من الحجر في الفم ولم يفكروا معالجة الخجل ؟ ..

وإذا كان خجل (س) عاق مستقبله المادي ، فإنه أشد عليه ضرراً في ميدان العاطفة .. إذ أنه برغم كونه ريعان الصبا لم يعرف الحب بعد .. أو على الأصح لم يتصل بـ ما .. مع أنه كان تواقاً بشـــدة إلى الحب .. كم خفق قلبه « السينما » عند ما يتلاقى المحبان على الشاشة بعد فراق طويل وكان إذا عاد إلى منزله بعد مشاهدته مثل هذه المناظر الغرامية يرتمي على المخدة ليدفن فيها حزنه وألمه ، ويأخذ في الـ الشديد .. لم يجد (س) في حياته الجرأة لمغازلة الفتيات ، حتـ أن بعضهن غازلنه ، ولكن س لم يكترث لهن ، لأنهن يتفاوتن في الدمامة ، و (س) لا ينظر إلا إلى الجمال ، لأن الحب نظره أمر سماوي مقدس .. وكثيراً ما كان يذهب إلى المتـ العمومي ، حيث كان يأمل التعرف بسهولة إلى حبيبة القلب المرتقبة فهناك ربما تنسى فتاة منديلها ، (أو حقيبة يدها) على أحـ المقاعد ، فيلتقطه ويقدمه لها ، فتتم بهذه السهولة المعرفة بينهما

يا للعجب ! ها هي أمنية (س) تتحقق ، لأن المقادير التي تضـ علينا بكسب سباق (الدربي) ، لا تضنّ علينا بتحقيق أمانـ المتواضعة ...

إليك كيف تحققت أمنية (س) :

شاهد (س) ذات يوم سيدة رائعة الجمال (كما تخيلها أحلامه) تجلس في المتنزه على أحد المقاعد وهي تقرأ كتاباً يدها باهتمام شديد ، فجلس (س) حيالها على مقعد يترقب فر

التعرّف اليها . . ثم لم يمض زمن طويل على هذا ، حتى نهضت السيدة من مكانها ونسيت حقيبة يدها على المقعد (كما تمنى س) فنهض من فوره ليلتقط الحقيبة ويقدمها اليها ، ولكن قدوم شرطىّ فى هذه الأثناء أفسد عليه الأمر إذ خشى س أن يحسبه الشرطىّ لصًّا . . وكان من حظ الشرطىّ تقديم الحقيبة لها ، وقد شكرته السيدة عليها بابتسامة ساحرة وانصرفت . .

مسكين (س) ، كم كان مقتًا لخروجه من التنزّه فى ذلك اليوم ! . .

ولكنه لم ييأس ، فعاد فى اليوم التالى إلى الحديقة فى المكان نفسه ، عساه يجدها هناك مرة أخرى ، فاذا بالسيدة الحسناء جالسة على المقعد نفسه تقرأ ! . . وكان من حسن حظه أن السيدة نسيت فى هذه المرة أيضا حقيبتها على المقعد ، لدى انصرافها ، فالتقطها وهرع فقدمها اليها ، قائلا فى تردد شديد :

— إنها المرة الثانية التى تنسين فيها حقيبتك يا سيدتى !

— هذا حقيق ! ولكن كيف عرفت ذلك ؟

— كنت هنا بالأمس عند ما فقدتها ، لقد هممتُ وقتئذ بالتقاطها وإعادتها إليك ، ولكن قدوم الشرطىّ أفسد علىّ الأمر فقد خشيتُ أن يظننى سارقاً . .

فضحكت السيدة عندئذ ضحكة عالية لسـذاجة الشاب وبساطته . . ثم أذنت له فى مرافقتها فى السير ، كما تولّت إدارة الحديث بعد ما رأته على هذه الحال من الخجل :

— إنى لا بد أن أنسى شيئاً عند ما أقرأ كتاباً . .

— إن ما تقرأينه لابد أن يكون ممتعاً جداً حتى انه ينسيك حقيبتك يومين متواليين . .

— هى رواية بوليسية .. إنى شديدة التعلق بالروايات البوليسية لأن حَبْك الدسائس الجنائية يتطلب ذكاء نادراً ..

كم أسف (س) عندئذ لعدم قراءته قصصاً بوليسية ، ولقد بدا عليه الأسف واضحاً ..

قالت — ربما كان المشى يتعبك ؟

— أبداً !

يا لسذاجتها ! إن (س) ليصمد معها جبال الهملايا عن طيب خاطر !

— إنى مضطرة إلى المشى كل يوم . . لمعالجة الأملاح . . .

تذكر (س) عندئذ اسم دواء للأملاح كان أوصى به طبيب لأخته ، فصاح قائلا :

— هناك دواء نافع للأملاح اسمه ....

ولكنها قاطعته فى سخرية :

— دواء ؟ صدقنى ليس هناك ما هو خير من المشى ...

وبعد أن تنزها نصف ساعة وصلا إلى باب الخروج فاستأذنت وانصرفت بعد أن وعدته بالحضور الى الحديقة فى اليوم التالى للتريض . . .

كم كان سعيداً فى ذلك اليوم ! ها هى ذى أحلامه تتحقق ! إن جمال هذه السيدة هو أسمى ما يطمح اليه ! أما هى ، فقد شعرت من فورها « باستلطاف » زائد نحو هذا الشاب الساذج الخجول ، لأنها لم تشاهد حولها فى وسطها الراق (إذ كانت من طبقة الأشراف) غير رجال أشبه بالطيور الجارحة ..

وفى اليوم التالى بكر فى الذهاب إلى الحديقة ، حيث التقى بسيدة أحلامه ، وقد تروضا هذه المرة ساعة بدلا من نصف ساعة . . .

ثم تقابلا فى الأيام التالية ...

وكانت هذه السيدة الحسناء تلبس دائماً قفازا أسود طويلا ، ودّ س . لو نزعتـه حتى يستطيع أن يطبع قبلة على يديها المحبوبتين . . .

وكان كلما طلب منها ذلك رفضت فى لطف . .

وقد ألحّ يوماً عليها فقالت :

— سوف تندم يا عزيزى لو نزعتُ قفازى ...

— هل تمنين أن يدك غير جميلة ؟

— أجل ، إن يدى اليمنى بها ست أصابع ...

— إذن ألثم اليد اليسرى

— اليد اليسرى ينقصها أصبع ...

— فليكن ذلك

— أقول لك إنك سوف تندم

ولكنه ألح الحاحاً شديدا اضطرت السيدة إزاءه أن تخلع القفاز ، ولكنه بدلا من أن يلثم يدها التى نزعت عنها القفاز ، صرخ صرخة مؤلمة ثم سقط مغشياً عليه ، إذ لمح فى يدها خاتم الخطوبة ...

صبحى شرقى

البريد الأدبي

كتاب لزعيم الاشتراكية الفرنسية

منذ بضعة أشهر توفى الفريد دريفوس الضابط اليهودى الفرنسى وبطل القضية الشهيرة التى هزت فرنسا منذ ثلاثين عاماً وكادت تدفعها إلى غمر الحرب الأهلية ؛ وقد صدرت عن هذه المأساة القضائية الشهيرة أثناء وقوعها وبعده عشرات من الكتب بمختلف اللغات ، وصدرت بمناسبة وفاة بطلها عدة كتب ورسائل جديدة ؛ ومن ذلك كتاب صدر أخيراً بقلم الزعيم الاشتراكى الفرنسى ليون بلوم وعنوانه « ذكريات من القضية » souvenirs sus l'Affaire ، أعنى قضية دريفوس ؛ ومسيو بلوم رئيس الحزب الاشتراكى الفرنسى ، وله ولحزبه مكانة قوية فى الحياة السياسية والبرلمانية الفرنسية ؛ وقد كان لموقفه أثر فعال فى التطورات السياسية الأخيرة وفى سقوط وزارة مسيو لافال ، ومسيو بلوم فضلا عن كونه سياسيا وخطيبا كبيرا ؛ كاتب كبير أيضاً ، وهو يتولى تحرير المقالات السياسية فى جريدة « بوبولير » الاشتراكية ، وله فيها جولات رنانة ، وقد كان مسيو بلوم وقت وقوع مأساة دريفوس فتى فى عنفوانه ولكنه كان قد شق طريقه السياسى ، وخاض غمار الحوادث السياسية والحزبية التى أثارتها القضية الشهيرة ؛ ونحن نعرف الآثار السياسية والاجتماعية والعقلية العميقة التى أحدثها النضال بين أنصار دريفوس وبين خصومه ، وكيف انشطرت الحياة العقلية الفرنسية يومئذ إلى شطرين : أحدهما يتجه إلى تأييد ما يسميه « الحقيقة والعدالة » بتأييد دريفوس ، والآخر يتجه إلى تأييد النزعات القومية والعسكرية المغرقة التى أثارت هذه المأساة الشهيرة ، ويصور مسيو بلوم فى كتابه هذه الحوادث والتطورات تصويراً قوياً ، ويشرح لنا البواعث النفسية والعقلية التى كانت تدفع أنصار دريفوس إلى العمل لنصرته وتبرئته ، فهؤلاء كما يقول مسيو بلوم كانت تربطهم عواطف قوية هى الثقة فى « قوة الحقيقة » ، وتدفعهم حماسة مضطرمة إلى ما فوق أنفسهم ، ويرى مسيو بلوم شبهاً قوياً بين حادث انهيار شركة بناما ومأساة دريفوس وهى أعظم حوادث هذا العصر ، وبين نكبة استافسكى الأخيرة وما تلاها من الحوادث الدموية فى فبراير سنة ١٩٣٤ ؛ فقد كان من ورائها العسكريون والوطنيون دائماً يثأرون لهزيمتهم فى انتخابات سنة ١٩٣٢ ؛ وقد كانت دسائس العسكريين والوطنيين مثار قضية دريفوس ، والخلاصة أن مسيو بلوم يقدم إلينا صوراً قوية خلابة عن الأوضاع السياسية والفكرية أيام دريفوس . ومع أنه يقدمها إلينا فى أثواب اشتراكية واضحة ، فإنه مع ذلك يسبغ عليها بقلمه وبيانه كثيرا من الأناقة والطرافة . وكتابه جدير باهتمام أولئك الذين تذكى خيالهم وتشجيهم حوادث المأساة الشهيرة .

وفاة مؤرخ وصحفى كبير

نعت إلينا الأنباء الأخيرة مؤرخاً وصحفياً فرنسياً كبيرا هو فرانسوا جاك بانفيل ؛ توفى فى نحو الخمسين من عمره ، وفى ذروة حياته الأدبية وكان بانفيل كاتبا وصحفيا كبيرا ، يحرر القسم السياسى فى جريدة « لاكسيون فرانسيز » لسان الحركة الملوكية بفرنسا وكانت مقالاته وبحوثه يطبعها دائما نفس الطابع الذى عرفت به هذه الجريدة المجاهدة والذى يسبغه عليها كتاب عظام ملكيون مثل شارل موراس وبانفيل . بيد أن بانفيل كان يحرر فى صحف أخرى مثل « بتى برزيان » و « لاليبرتيه » ليس لها مثل هذا الطابع . ومع أن بانفيل كان صحفياً بارزا يدفعه التيار الصحفى دائماً إلى المعترك ، فانه لم ينس نزعته الحقيقية ، وهى نزعة المؤرخ الذى ينظر إلى الحوادث بروح علمى مستقل ؛ وقد ترك لنا عدة كتب تاريخية تشهد ببراعته النقدية وحسن تقديره للحوادث والأشخاص منها تاريخ لفرنسا ، وتاريخ للجمهورية الثالثة ، ومنها تاريخ لألمانيا المعاصرة حتى قيام هتلر ، وتاريخ للطغاة المعاصرين مثل ستالين وموسوليني وغيرها ؛ وتمتاز كتبه وبحوثه بقوة التصوير ، وسلامة العرض ، والبحث العميق

المثلثات والعرب

تعليق على مقال فى مجلة نايتشر (١)

فى الشهر الماضى ظهر فى مجلة نايتشر الانكليزية مقال من أدجرسمث Edgar C. Smith تناول فيه البحث عن نوابغ العلماء والأدباء الذين ولدوا فى الأعوام ١٥٣٦ ، ١٦٣٦ ، ١٧٣٧ ، ١٨٣٧ بمناسبة حلول العام الميلادى الجديد ١٩٣٦ ، وقد جاء فى هذا المقال أن ريجيو مونتانوس كان من أعظم رياضيى زمانه ، ومن رجالات العلم البارزين فى عصره ، وأنه كان أيضاً موضع إعجاب وتقدير من ذوى السلطات الزمنية والروحية ، وإليه يرجع الفضل فى نقل بعض علوم اليونان والمسلمين إلى الغرب ، وفى تعريف الأوروبيين اليها – كل هذا صحيح لا سبيل إلى نكرانه ولا يختلف فيه اثنان . . . ولكن هناك شيئاً واحداً أحببت التعليق عليه وهو القول : « بأن ريجيو مونتانوس ألف فى الرياضيات وأن كتاب المثلثات (De Triangulis) هو أول ثمرة من ثمار ريجيو مونتانوس ، ومجهوداته فى المثلثات على نوعيها المستوية الكروية ، كما أنه أول كتاب بحث فيها بصورة منظمة علمية . . . »

اختلف العلماء فى محتويات كتاب De Triangulis الذى وضعه ريجيو مونتانوس ، وفى نسبتها اليه ، فبعضهم يدعى أن كل محتويات الكتاب هى من وضع ريجيو مونتانوس وأنه لم يستعن فى ذلك بأحد ، وبعضهم يقول خلاف ذلك ، وبقى هذا الاختلاف زمناً طويلا إلى أن ثبت حديثاً أن ريجيو مونتانوس اعتمد فى بحوثه فى هذا الكتاب على مؤلفات العرب والمسلمين . ولا عجب فى هذا فاليهم يرجع الفضل الأكبر فى وضع كثير من نظريات علم المثلثات وموضوعاته ، واليهم لا إلى غيرهم يرجع الفضل أيضاً فى تقدمه ورقيه ، ولولاهم لما وصل الغربيون فيه إلى ما وصلوا اليه

وينقسم كتاب ريجيو مونتانوس إلى خمسة فصول كبيرة منها ما يبحث فى المثلثات المستوية ، ومنها ما يبحث فى المثلثات الكروية ، وقد ثبت لدى الباحثين أن الأصول التى اتبعها ريجيو فى الفصل الخامس هى بعينها الأصول التى اتبعها العرب فى الموضوع نفسه فى القرن الرابع للهجرة – هذا ما توصل اليه العالم المحقق التركى صالح زكى بعد دراسة مؤلفات ريجيو مونتانوس وأبى الوفاء البوزجانى ، ومما يزيد المرء اعتقاداً بهذا كله اعتراف كاجورى بأن هناك أموراً كثيرة وبحوثاً عديدة فى علم المثلثات كانت منسوبة إلى ريجيو مونتانوس ثم ثبت حديثاً أنها من وضع المسلمين والعرب ، ويوجد غير كاجورى أمثال سمث وسارطون وسيديو وغيرهم من اعترف بأن بعضاً من النظريات والبحوث نسبت فى أول الأمر الى ريجيو مونتانوس وغيره ثم ظهر بعد الاستقصاء خلاف ذلك

نابلس قدرى حافظ طوقان

كتاب جديد لبول موران

بول موران من أعظم كتاب فرنسا المعاصرين ، وهو بلا ريب أحدثهم نزعة ، وأوفرهم طرافة ؛ وربما كان ذلك يرجع إلى تكوينه وظروف حياته ؛ فقد درس فى باريس ، واكسفورد ، وأدنبورج ، ودرس الأدب والقانون ، وهيأت له حياته كموظف فى السلك السياسى فرصة واسعة للسياحة والدرس ؛ واتخذت أشعاره وقصصه الأولى أحدث طابع ؛ وظهرت كتبه الأولى ومنها مجموعة القصص المسماة « مفتوح بالليل » و « مغلق بالليل » فكانت تحفاً بديعة جديدة فى الأدب الفرنسى ؛ وأشد ما تبدو قوة بول موران وطرافته فى تصوير حياة المدينة ، وقد اشتهر بكتابيه عن لندن ونيويورك حيث يصور فيهما الحياة الظاهرة والخفية فى تينك العاصمتين الكبيرتين أقوى تصوير وأبدعه ؛ وبول موران سائح لا تخمد له رغبة أو هوى ، يضرب فى أنحاء العواصم الكبرى وينفذ إلى أعماقها وخفاياها ، وقد أصدر أخيراً كتاباً عن عاصمة جديدة هى « بوخارست » وذلك بعد أن أقام فى رومانيا ردحاً من الزمن ؛ وعنوان الكتاب الجديد لا يثير لأول وهلة اهتماماً كبيراً لأن بوخارست ليست من العواصم الكبرى ذات الشهرة الرنانة ، ولكن بول موران يسبغ عليها بكتابه سحراً وروعة ؛ وهو يرى أن يثير بهذه المناسبة ذكرى بيزنطية وذكرى روسيا القيصرية ؛ بيد أنه يتناول المدينة الحديثة وحياتها . ويرى

(١) مجلة Nature عدد ٣٤٥٣

فيها مفترق المدنية الأوربية ، وبدء انسيابها إلى الحياة الاسيوية ؛ ويصف المجتمع الرومانى وخلاله ، وميله إلى الطرب والاستهتار ، وما يمتاز به من الدعابة والنكتة ؛ ثم يصف مجتمع الريف فى صور ساحرة ، ويرى فى خلاله وعاداته طرافة ليست لمجتمع المدينة ؛ ويخصص موران فصولا ونبذاً عديدة لحياة « النور » الذين يكثرون فى رومانيا وخلالهم وفنونهم ، ويقدم الينا عن مختلف طبقات الشعب الرومانى كثيراً من المعلومات والحقائق المفيدة الطريفة معاً

وبول موران لا يجاوز اليوم الثامنة والأربعين من عمره ، ومع ذلك فهو يتبوأ منذ أعوام طويلة المقام الأول فى ثبت الكتاب المحدثين

ذكرى مخترع القاطرة

احتفل أخيراً فى انكلترا بالذكرى المئوية الثانية لمولد جيمس واث مخترع القاطرة البخارية ، واتخذ الاحتفال صبغة رسمية ، فأقيمت صلاة على روحه فى « وستمنسترابى » ؛ ورفع الستار عن لوحة تذكارية أقيمت فى بلدته (جرنيوك) من أعمال اسكتلنده ، ونثرت زهور كثيرة على أثره التذكارى ببلدة برمنجهام أعظم مصنع لصناعة القاطرات فى انكلترا ؛ وأقيم فى لندن معرض عرضت فيه نماذج من الآلات والقاطرات البخارية منذ اختراعها إلى اليوم ؛ وقد خصص المعهد الميكانيكى الأنكليزى بهذه المناسبة جائزة تعطى لمن يقوم بأفضل اختراع فى ميدان الهندسة الميكانيكية ، سواء فى انكلترا أو فى غيرها من البلاد

وقصة واث شهيرة فى تاريخ الاختراع ، فقد ولد فى سنة ١٧٣٦ وكان طفلاً سقيما فلم يتلق تربيته قبل الثالثة عشرة ؛ ودرس الهندسة العملية ، واشترك فى أعمال وتجارب هندسية خطيرة ؛ وفى سنة ١٧٦٤ توصل إلى الوقوف على سر البخار كقوة محركة ، وذلك أثناء إصلاحه لآلة بخارية وضع تصميمها جون نيوكمن ؛ وفى العام التالى استطاع أن يصنع جهازاً لحفظ قوة البخار ، ثم وضع تصميما لآلة بخارية جديدة صنعت فى معامل سوهو بالقرب من برمنجهام ، وكان هذا مولد القاطرة الحديثة

الكتب

الفن الاسلامى فى مصر

للدكتور زكى محمد حسن
المساعد الفنى بدار الآثار العربية

هذا الكتاب الثمين ليس سوى الجزء الأول من ثلاثة أجزاء وعد المؤلف باصدارها . إذ رأى أن لتاريخ الفن الاسلامى فى مصر حلقات ثلاثا : تبدأ الأولى بالفتح العربى وتنتهى بسقوط الدولة الطولونية ، وتشمل الثانية عصر الفاطميين ، وتحتوى الثالثة على عصر المماليك . وخص هذا الجزء بالحلقة الأولى وكشف فى مستهله عن سر النزعات فى هذا الفن بإيراده مقدمة تاريخية سياسية تفصح للقارىء عن أثر كل تطور خاص بسياسة الدولة المصرية فى الفن الاسلامى

وطبيعى أن يعنى المؤلف الفاضل بناحية البحث فى تاريخ فن العمارة وزخرفة البناء الأسلامية عناية خاصة . وليس ذلك لمجرد مطابقة هذه الناحية من الفن لطابع العرب الدينى ، بل ولأنه أيضاً استرعى أنظارهم وهم البدو وما كنهم الشعر ، ولاءم مزاجهم الرياضى الفنى ، واتفق وغرضهم من التعمير — على حد ما نعتقد

ولم يستكمل الفن الاسلامى فى مصر وضوحه إلا فى عصر الطولونيين . وكان فناً مستقلا عن الفن الذى ازدهر فى سامرا مدينة المعتصم

واستعرض المؤلف تاريخ تلك المدينة منذ نشأتها ، ثم واصل عرض آراء العلماء فى شأن فنها ، وأخذ يوازن بين الخطأ فى تلك الآراء والصحيح منها

ومن أهم النظريات التى أثبتها اعتبار زخارف سامرا غير متأثرة بأساليب الفن السيتى إلى حد كبير ، كذلك اعتبار أن الجند الترك لم يكن لهم فى الناحية الفنية شىء يذكر فى عهد الخلفاء العباسيين ، وأن الفرس بماضيهم الفنى المجيد أكثر استعداداً من الترك للتأثير فى الفنون الأسلامية ، ولو أن ذلك الرأى قال به غيره ، إلا أنه عززه بأدلة مما عثر عليه من صور فى سامرا ، ولم يفت المؤلف ذكر توافد مهرة الصناع العراقيين والفارسيين والأغريق وغيرهم على سامرا ، فأصبح الفن هناك خليطا

وتكلم المؤلف فى الفصل الثانى من الكتاب عن العمارة الدينية ، ولا شك أن العمارة بلغ بها المسلمون شأوا بعيداً ، إذ هى عندهم أجل الفنون ، فابتدعوا فيها وأبدعوا ؛ ويعد جامع احمد ابن طولون أهم الآثار العربية فى مصر وأقدم شاهد على المدنية الاسلامية فيها . ودحض المؤلف فكرة أن هذا الجامع كان من مساجد المعسكرات . وهى فكرة رائجة بين عدد من علماء الفرنجة

ثم جاء فى الفصل الثالث على ذكر العمارة الحربية والمدنية التى لم يبق منها لعهد الأسرة الطولونية سوى قناطر ابن طولون ، إلا أن مؤرخى العرب ومؤلفى الخطط أفاضوا فى وصف مدينة القطائع والبيمارستان وكذا القناطر . وذكر المؤلف بعض تفاصيل شائقة عن تأسيس مدينة القطائع وعن قصر ابن طولون بها الذى حاكى به قصور الخلفاء فى سامرا . وجاء بوصف ممتع للقصر وما حوى وما أضافه ابنه خمارويه عليه من أبنية وحدائق . وكان لتنقيب دار الآثار العربية وعثورها فى صيف سنة ١٩٣٢ على أطلال منزل طولونى بالتلال المجاورة لأبى السعود الفضل فى الاستدلال على بعض قواعد وأصول العمارة المدنية الخاصة بالعصر الطولونى . وذكر المؤلف أن قناطر ابن طولون شيدت فى الجهة الجنوبية الشرقية من مدينة القطائع . ولا زالت بعض عقود القناطر قائمة حتى اليوم ومنها يستدل على متانتها وبديع الصناعة فيها ؛ والمعروف أن المهندس النصرانى الذى تولى لابن طولون بناء هذه العيون هو نفس المهندس الذى شيد له فيما بعد المسجد الجامع

أما زخرفة المبانى للعهد الطولونى التى وردت فى الفصل الرابع من الكتاب ، فهى أكثر الفنون التى تأثرت بالصناعة العراقية والفن الذى ازدهر فى سامرا . وعالج فيها المؤلف مشكلة اختلف فيها العلماء وهى هل كان موطن هذه الزخارف ومكان نشأتها البلاد المصرية ، أم أن الزخارف الطولونية مأخوذة عن

الزخارف العراقية في سامرا ؟ ورأى المؤلف في الجمع بين الرأيين حلا لاشكاله ؛ وقد حلل الدكتور محمد حسن الزخارف إجلالا تحليلا دقيقاً ، لا نستطيع الا أن نحيل القارئ إلى ما كتبه عنها

ثم انتقل في كتابه إلى الفنون القديمة ، ومهد لها بكلمة جامعة قيمة . وأتى في الفصل الأول على تاريخ صناعة النسج في مصر وتطورها ، فاستُغني شيئاً فشيئاً عن الرسوم الآدمية والحيوانية التي كانت في الفن القبطي ، وقوى الميل إلى الزخارف الهندسية ، كما لعبت الكتابة دورا هاما في هذه الصناعة . وكانت صناعة الحرير والقطن والكتان من الجودة بدرجة أن المباراة بين الكنائس والمساجد والأسواق الخارجية كانت تتزاحم للحصول على منسوجات مصر . ومع كل فلم يطبع النسج بطابع إسلامي إلا ابتداء من العصر الفاطمي

ثم تكلم المؤلف عن الحفر على الخشب ، وأبواب استعماله في مختلف أنواع المباني والزخرف . ويمكن اعتبار أن هذا الفن بقي حافظا للتقاليد القبطية زمنا طويلا ، بدليل ما كان بمصر ابن طولون ؛ وأبان المؤلف ذلك كما أبان النزعة إلى الكتابة على الخشب في عهد ابن طولون . ثم عالج في اقتضاب تطور الخط العربي ، ورأى أن المناسبة حسنة لذلك

وانتهى من ذلك إلى الكلام عن الخزف ، ولو أن دراسة الخزف الاسلامي لا زالت صعبة المنال ، ولكن مما لا جدال فيه أن الخزف الاسلامي يمتاز بالجودة عن الخزف المصري في العهد القبطي فكان الخزف للعهد الطولوني يصنع من طينة رقيقة . ويمتاز بزخارف ذات بريق معدني ، ذى لون أصفر أو زيتوني على أرض بيضاء أو بيضاء مشوبة بالصفرة . وهذه المميزات نفسها نجدها في الخزف الذي عثر عليه في سامرا

ثم ختم أبحاثه ببحث عن التصوير طريف . وفيه ذكر أن التصوير الذي ينسب إلى مدرسة بغداد كانت تمد سورية أو العراق أو إيران مصدره ، وان فن التصوير لم يزدهر إلا في تلك الأقاليم متأثرا بالتعاليم الفنية التي أخذها العرب عن المانويين والبيمانية والصينيين . وظلوا لا يفكرون في مصر كمهد لمدرسة من مدارس التصوير الاسلامي حتى كان الاكتشاف المشهور في الفيوم ، ذلك الاكتشاف الذي أثبت وجود صور مصغرة إسلامية ترجع الى القرن التاسع والعاشر والحادي عشر . ولم يترك المؤلف هذا الفصل دون أن يعالج ما يسمونه تحريم التصوير في الاسلام ، وقد أجمل القول بأن نظرة في الكتاب الكريم ، وفي كتب التفسير ، وفي أسباب النزول كافية لأن تثبت هذا الزعم باطل لا أساس له وان كان مكروها

وعقد المؤلف للكتاب خاتمة ألم فيها بالصناعات التي عرفتها مصر في فجر الفنون الاسلامية ، وذكر في لمحات سريعة تطورها حتى نهاية العصر الطولوني ، وأشار الى أن رجال الفنون والصناعات في القرنين الأول والثاني بعد الهجرة ، كانوا من المصريين ، سواء في ذلك من اعتنق منهم الاسلام ومن ثبت على المسيحية

ولا شك في أن الدكتور زكي محمد حسن قد أحسن دراسة موضوعه وسار ببحثه سيراً هادئاً ؛ وكان قديرا في مناقشة حجج علماء الفنون الاسلامية ، وفي تدعيم آرائه بالبينة ، وليس ذلك بالأمر الصعب على مثله ، وقد راجع عشرات الكتب ، وعمر عديد التحف قبل أن يستقر على رأي يبديه في جملة متواضعة وفي أسلوب سهل رصين ، وكان موفقاً في تنسيق بحثه تنسيقاً محكما حتى كاد يبدو تحفة في ذاته ، وساعده جمال الطبع والورق والتجليد على زيادة بهائه ورونقه ، وقد يهم القارئ أن يعرف أن المؤلف لم يترك كتابا قرأه في ذلك البحث إلا وذكره ضمن مراجعه ، كما ذيل الكتاب بتراجم أهم الأسماء الواردة في الكتاب وكذلك ذيله بلوحات فتوغرافية غاية في الاتقان لايضاح ما تكلم عنه

ولسنا وحدنا الذين نثني على حضرة الدكتور زكي محمد حسن وعلى عمله وجهده هذا ، ولا عيب عليه سوى انه يتركك بعد قراءة هذا الكتاب ، أو قل دراسته ، تتلهف لقراءة الطولات من أمثاله ؟